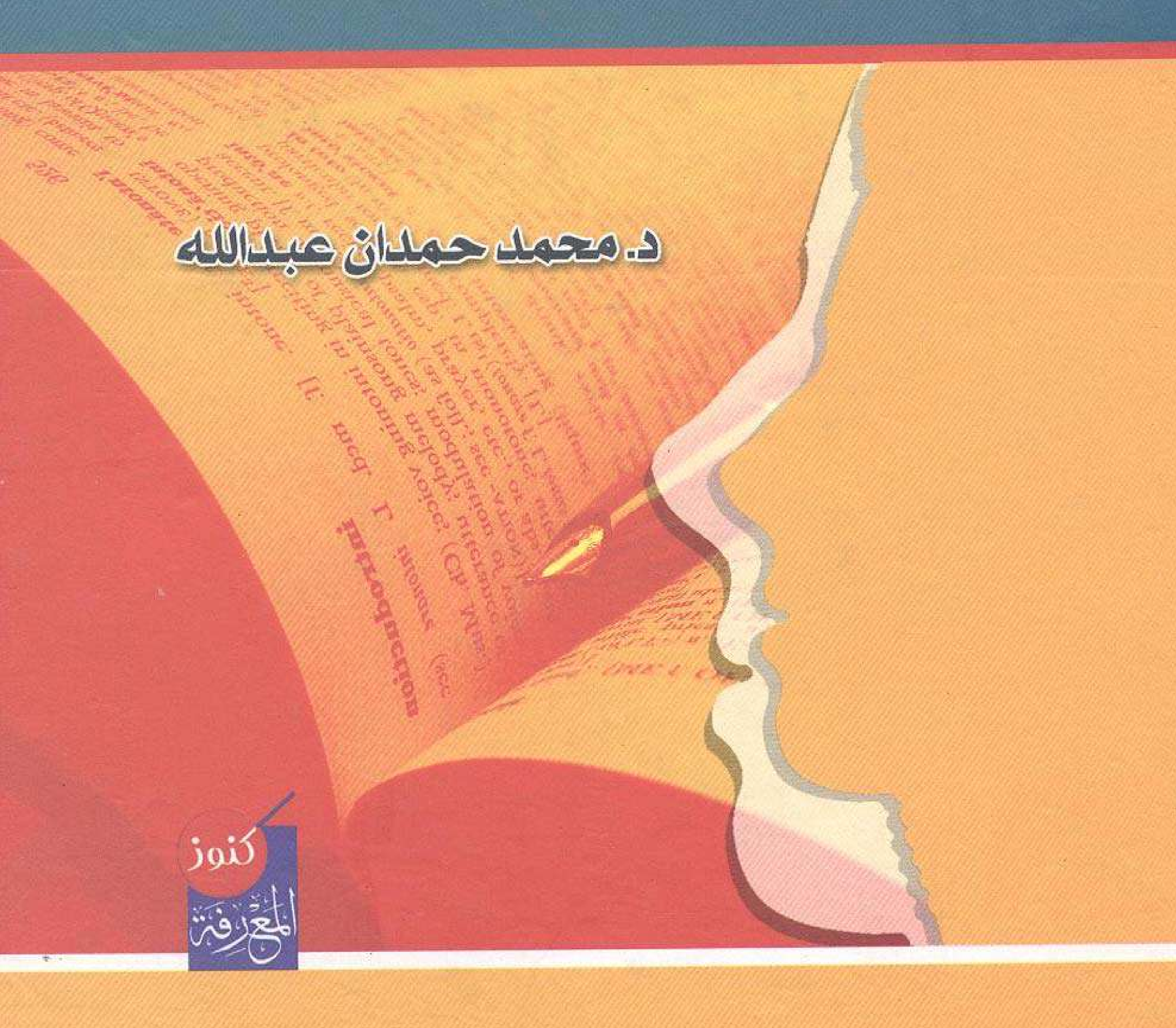
الفلسفة التربوية ودورها في التنمية




تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

الفلسفة التربوية
ودورهـــا في التنميــة

تأليف

د. محمد حمدان عبد الله

الطبعة الأولى 1428هـ - 2008م



اسم الكتاب: الفلسفة التربوية ودورها في التنمية

الرقم المتسلسل: 370.15

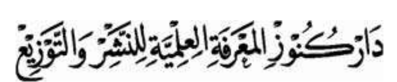
رقم الإيداع : (2008/4/1070)

تأليف: د. محمدحمدان عبد الله

الواصفات: /علم النفس التربوي//التنمية الاجتماعية// التعلم/.

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
من قبل دائرة المكتبة الوطنية





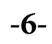
الأردن – عمان - وسط البلد - مجمــع الفحيص التجاري
تلفاكس: 4655877 6 00962 -ص. ب 712577 موبايل: 5525494 79 00962

E-Mail: *dar_konoz@yahoo.com*

ردمك: **ISBN : 978 - 9957 – 463 – 75 - 5**

تنسيق وإخراج صفـــاء نمر البصار **00962 79 6507997**
safa_nimer@hotmail.com

المحتويات



تمهيد

يعد التعليم لأية أمة من الأمم أساساً لنموها وتقدمها وازدهارها، وإيصالها إلى المواقع الحضارية الأكثر تقدماً، كما أنه يساعد الأمم على مواجهـة تحـديات الحـاضر ومتطلبات المستقبل، ولا ينفك الإنسان طيلـة حياتـه يـتعلم بطريقـة مبـاشرة وغـير مباشرة، ومن ثم جاءت المقولة بأن الإنسان يـتعلم مـن المهـد إلى اللحـد، وارتبطـت فرص التعليم بالمكانة الاجتماعية، كما ارتـبط مقـدار التعلـيم بمـن يملكـون ومـن لا يملكون، وغدا الاستمتاع بمقادير وأنواع معينة من التعليم وسيلة من وسائل التبـاين الاجتماعي[1].

حيث تلعب التربية دوراً فاعلاً وحيوياً في تجربة التنمية التـي تخوضـها الأمـة العربية، إن التربية هي التنمية بكل ابعادها البشرية والاقتصادية. والتنمية هي باب الحضارة التكنولوجية والعلميـة ومفتاحهـا. والإنسـان هـو محـور ذلـك كلـه وسـيلة وغاية[2].

ان التربية بهذا الفهم لا تخرج عن كونهـا نشـاطاً اجتماعيـاً شـاملاً يسـعى إلى إعداد الإنسان الجديد، الإنسان الذي يعيش في عالم التغير السريع.

ونعني بالتنمية (بوصفها مصطلحاً): إشارة هذا المصطلح إلى أنها عملية تغيـير مقصودة تقوم بها سياسات محددة وتشرف على تنفيذها هيئات قومية

---

(1) د. عبد العزيز الغريب صقر، دراسات في اجتماعيات التربية، الدار العالميـة للنشرـ والتوزيـع، القـاهرة، ط1، 2005م.

(2) د. محمد الهادي عفيفي، الأصول الثقافية للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1985م.

مسؤولة تعاونها هيئات على المستوى المحلي تستهدف إدخال نظم جديدة أو إحلال قوى اجتماعية مكان القوى الاجتماعية القديمة بالفعل، أو إعادة توجيهها وتنشيطها بطريقة جديدة وتهيئة الظروف المتعددة لهذا الجانب من التغيير الاجتماعي الذي يطلق عليه اسم التنمية[1].

فالتنمية إذن هي الجهود المنظمة التي تبذل وفق تخطيط مرسوم للتنسيق بين الامكانات البشرية والمادية المتاحة في وسط اجتماعي معين بقصد تحقيق مستويات أعلى للدخل القومي والدخول الفردية ومستويات أعلى للمعيشة والحياة الاجتماعية في نواحيها المختلفة كالتعليم والصحة والأسرة والشباب ومن ثم الوصول إلى تحقيق أعلى مستوى ممكن للرفاهية الاجتماعية[2].

وإذا كان التعليم حقاً من حقوق الإنسان من الناحية القانونية، فإنه واجب على الفرد وعلى المجتمع من الناحية الإنمائية، ومن هنا جاء مبدأ الإلزام في قسط معين من التعليم ملزماً للفرد ليعيش في مجتمعه، وملزماً للمجتمع أن يوفره لأبنائه وبناته، وفي جميع الحالات فإن قيمة التعليم تستمد منطقها من أن المعرفة غاية في حد ذاتها، كما أنها وسيلة لتحقيق غايات إنسانية ومجتمعية أخرى[3].

لقد أخذت الدول النامية ومنها الوطن العربي. تنظر في مراحل بناء مجتمعاتها وتطوير اقتصادها ونظمها الاجتماعية، إلى التعليم بوصفه قوة من القوى الفاعلة في عمليات التنمية الاقتصادية والتماسك الاجتماعي وذلك ان

---

(1) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، 1987م.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) د. عبد العزيز الغريب صقر، دراسات في اجتماعيات التربية، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.

الاستثمار في التعليم انما هو استثمار اقتصادي يدفع ويطور عمليات الإنتاج، تزاد على ذلك الأهداف غير الاقتصادية التي يحققها التعليم في حياة الأفراد وفي حياة المجتمعات كالأهداف القومية والإنسانية العامة، لذلك فإن عملية التعليم تعد عملية استثمار اقتصادي في الموارد البشرية لها أهميتها في مجالات الدراسة. وفي مجالات تخطيط التنمية الاقتصادية والاجتماعية ومن هنا جاءت الضرورة التي تحتم المراجعة المستمرة لمناهج التعليم وما تزود به التلاميذ والطلاب من معلومات وقيم ترتبط بأنماط الإنتاج والاستهلاك الموجودة[1].

والمتأمل للتطورات والاهتمامات الرئيسة لهذا العصر يجد أن التعليم أصبح يستأثر باهتمامات كبيرة من جانب المربين والنظم التعليمية، ومن جانب الاقتصاديين والمشروعات الإنتاجية، ومن جانب المخططين والخطط التنموية، ومن جانب أبناء المجتمع مهنيين وغير مهنيين، فالتعلم بمدارسه ومعاهده وجامعاته، ومختلف مؤسساته وتنظيماته هو الأداة الرئيسة في التنمية البشرية، وفي الوفاء بحاجات الفرد للنمو المتكامل إلى أقصى ما تستطيعه قدراته ومواهبه وإمكاناته[2].

وعلى هذا ينبغي علينا ان نركز في العملية التربوية على أهمية غرس عقيدة عميقة في الشخصية العربية، وهي ضرورة المشاركة في بناء المجتمع.

إن هذا التوجه التربوي يتطلب قبل كل شيء تتبع وتفحص الأسباب المؤدية إلى الارتفاع بالقاعدة البشرية كماً ونوعاً وتوجيهها الوجهة المناسبة لم يتميز به العصر من إقبال منقطع النظير نحو التعامل مع التقنيات في جميع

---

(1) عبد الجليل الزوبعي، مناهج البحث في التربية، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1974م.

(2) د. عبد العزيز الغريب صقر، دراسات في اجتماعيات التربية، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.

المرافق الحياتيـة لانتشـارها انتشـاراً واسـعاً شـمل شرائـح المجتمـع المختلفـة بأكملها[1].

إن الحاجة إلى التعلم ضرورة من ضرورات البقاء والنماء للإنسان، في أي زمـان وفي أي مكـان، وفي أي مجتمـع مـن المجتمعـات، ومـع تطـور الحضـارة الإنسـانية وتعقيداتها أصبح حق الإنسان في أن يتزود بقسط من التعليم المنظم والمنـتظم مـن الحقوق الأساسية التي نصت عليها المواثيق الدولية، والتي تضمنتها معظم الدساتير، فضلاً على ما أرسته الديانات السماوية من الحث على التعليم والتعلم[2].

وهكذا يصبح التعليم من مستلزمات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، نتيجة للتقدم الفكري للإنسان عن طريق الدراسة والموازنة، ولما كان التخطيط ينظر للتعليم على انه استثمار لا ينتظر عائده الا بعد سنوات عدة قد تصل أحياناً إلى أكثر من عشرين سنةً في التخصصات العالية فقد نظر الناس إليه على انه استثمار اقتصادي طويل الأجل مما يدفع الآباء أحياناً إلى التريث في استمرار أولادهم في التعليم. إلا أن هذا يتوقف في طبيعة الحال على عدة عوامل شخصية وعائلية وبيئية واجتماعية.

ومن المعروف أن المدخل الاجتماعي للتربية يؤكد على ما يأتي:

1. ان الفرد ليس مستقلاً عن الوسط الاجتماعي.
2. ان الفرد في مجتمعه ما هو إلا جزء مـن كـل اجتماعـي، حيـث ينشـأ هـذا الجزء وينمو في وسط ثقافي أبدعته ونمته الأجيال المتعاقبة،

---

(1) د. سلام علي الجبوري، أهمية التربيـة في تجربـة التنميـة، وزارة التعلـيم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة الموصل، الموصل، 1987م.

(2) حامد عمار، التنمية البشرية في الوطن العربي، المفـاهيم- المـؤشرات- الأوضـاع، دار سـينا للنشرـ والتوزيـع، القاهرة، 1992م.

على أن شخصية الفرد في مجملها كيان يشكل بهذه الثقافة وينمو من خلالها.

3. ان الشخصية البشرية للفرد تحتهم في تشكيل هذه الثقافة المكونة من أجيال المجتمع المتعاقبة، لا بل تسهم في تنميتها والإضافة إليها أيضا.

وهذا الفهم يوضح لنا، اجتماعية التربية وتربوية المجتمع، إذ أن هناك عطاءاً متبادلاً بين المجتمع والتربية. وهذا هو الوجه الاجتماعي للتنمية(1).

وقد زاد الاهتمام في العقود الأخيرة بالتعليم على مستوى العالم المتقدم والعالم النامي على حد سواء، ولعل هذا الاهتمام يرجع إلى طبيعة العصر ومتغيراته، والعمل التربوي، وما يسوده من فلسفات، وما يحيط به من مشكلات، وإلى تبني العديد من بلدان العالم لسياسة التنمية، وما تتطلبه خططها من قوى بشرية مدربة، وما تهدف إليه من تطوير وتحديث(2).

وبهذا يتبين لنا أن التنمية ليست مجرد مشروعات وفنيين وأخصائيين يديرون هذه المشروعات وينفذونها، بل هي إلى جانب ذلك وعي ثقافي عام وإحساس بقيمة المواطنة وتجاوب ومشاركة حقيقية بين القاعدة والقمة في تحقيق أهداف التنمية، نتيجة يشيعه التعليم الجيد بين المواطنين من عادات وقيم وأنماط سلوكية. ويتميز التعليم في هذا العصر بعدة خصائص متأثراً بعصره وما أصابه من تغير، ومؤثراً فيه بما حققه من أهداف، وما أنجزه من دراسات، وما نفذه من خطط تربوية، وبما أعد ونمى من أفراد، ومن خصائص تعليم هذا العصر أنه أصبح تعليماً للجميع، ولم يعد قاصراً على

---

(1) د. سلام علي الجبوري، أهمية التربية في تجربة التنمية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، الموصل، 1987م، ص59.

(2) نور الدين عبد الجواد، الحاجة إلى تعريف عربي موحد لمفهوم تعليم الكبار، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية، المجلد الرابع، 1992، ص507.

فئة دون غيرها، وأصبح لشتى مراحل العمر، وليس قاصراً على فئة دون غيرها، وأصبح تعليماً للكبار كما هو للصغار، سعياً نحو تحقيق "المجتمع المتعلم"[1].

وبعد هذه الجولة الفكرية بين التربية والتنمية، نستنتج الآتي:

أولاً:

تعد التربية بحد ذاتها جزءً من الاستثمار الاقتصادي وهي توظيف إنساني تقدر كلفته ومدخوله حسب أسس اجتماعية واقتصادية، فكل تقدم في المعرفة التقنية يؤدي إلى فوائد اقتصادية في أهميتها عما يعود على البلاد من تنفيذ أية خطة اقتصادية، لاتقل بالمعنى الاقتصادي المتعارف عليه.

ومن هنا كان على التخطيط الشامل للتربية إذا أراد أن يستجيب لمطالب التنمية الاقتصادية والاجتماعية أن يوازن بين أنواع التعليم المختلفة ولا سيما بين التعليم النظري والتعليم الفني المهني[2].

ثانياً:

ان التربية لها دور مؤثر في التركيب الاجتماعي والاقتصادي، وهذا يعتمد على النهج الجديد الذي اعتمدته التربية، ورأت فيه درب استثمار وليس نوعاً من أنواع الخدمات العامة التي تقدمها المؤسسات والدولة للأفراد[3].

---

(1) عبد الرحمن بن سعد الحميدي، بحوث ودراسات في مجال محو الأمية وتعليم الكبار، مطابع الفرزدق، الرياض، 1993م.

(2) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، الموصل، 1987م.

(3) د.سلام علي الجبوري، أهمية التربية في تجربة التنمية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، الموصل، 1987م

ثالثاً:

ان المفهوم المعاصر للتربية ألغى من الساحة مفهوم التربية التقليدي الذي يرى فيها عملية استهلاكية. ان المفهوم المعاصر للتربية دعا المهتمين بقضايا الإنسان والمجتمع للتأكيد على أن التربية هي بشكل ما مسؤولة مسؤولية مباشرة عن تقدم المجتمع وتخلفه، بل أصبح مقبولاً ذلك التفسير الذي يربط تقدم المجتمع بالأساليب التربوية. وقد فسر أحد الباحثين السرعة الهائلة التي تحولت بها اليابان من دولة إقطاعية إلى دولة عظمى حديثة والطريقة التي استطاعت بها أن تصلح الدمار الذي لحق بها وتعوض الخسائر التي منيت بها من جراء الحرب العالمية الثانية بالتربية، وفي اعتقاده "أن أسلوب تربية الأطفال عند اليابانيين مسؤول عن إنتاج طراز آخر من السلوك في الكبار"[1].

رابعاً:

تصبح التربية في وظيفتها ليست مجرد أداة لنقل التراث من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة، لأنها تتعدى في وظيفتها تلك هذا الإطار إلى آفاق أكثر اتساعاً وشمولاً.

فمما لاجدل فيه ان تحقيق أية سياسة وطنية وقومية، وأي هدف اجتماعي أو قومي. لا يمكن أن ينفذ إلا بوساطة وسيلة التربية والتعليم بالمعنى الواسع. لأن عملية التربية والتعليم قوة فعالة، لا بل هي قوة استراتيجية في إعادة بناء المجتمع وتوحيده بعد التجزئة والتفكك والتقسيم، ومن ثم في تطويره وإنمائه وتقدمه. وهو أن كل سياسة عامة وكل هدف وطني وقومي، وكل مشروع لا تتبناه المؤسسة التربوية، ولا تضع له الخطط التربوية المدروسة

---

(1) عبد الله عبد الدايم، مراجعة استراتيجية لتطوير التربية العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1995م.

اللازمة لتحقيقه، لن يخرج من دائرة الأماني ولن يتعدى مرحلة أحلام اليقظة[1].

خامساً:

تحقيق نوعٍ من الانسجام بين الأهداف التربوية وخطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية وذلك عن طريق الاهتمام بما يتفق مع التربية وحساب مردود الإنفاق على الصعيد الشخصي للطالب وعلى الصعيد القومي للوطن كله من أجل إعداد ملاكات من ذوي القدرة على إدارة شؤون اقتصادنا القومي وإعداد القوى القادرة على الدفاع عن خيراتنا الاقتصادية وهويتنا الثقافية[2].

---

(1) د. محمد الهادي عفيفي، الأصول الثقافية للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1985، ص89.

(2) د. ميادة جاسم، التربية ودورها في التنمية الاجتماعية والاقتصادية، دار الفجر الساطع للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص57.

1

الفصل الأول

الشباب... والتنمية

الفصل الأول

الشبـــاب.. والتنميـــــة

الشباب الذي نقصده في هذا المجال هو الشباب الجامعي، الذي برزت مكانته الاجتماعية في المجتمعات الحديثة نتيجة لنمو التعليم، واتساع آفاقه، والـذي أصـبح لمكانته هذه اعتباراتها، وبالتالي أصبح من المهم جداً أن تستمر طاقاته، وتتجه أفضل توجيه.

هذه المكانة الاجتماعية للشباب، تفرض علينا اعتبارات هامة ينبغي ألا نغفلها منها:

1. ان مفهوم الشـباب يعـبر مدلولـه عـن تلـك الفئـة الاجتماعيـة، التـي تنمـو وتـزداد عـدداً في التركيـب الاجتماعـي للمجتمعـات، كـما أنهـا هـي الفئـة الاجتماعية التي تقسم- وينبغي أن تكون كذلك- بأعلى درجة مـن النشـاط والحيويـة، وأنهـا المرحلـة التـي تتميـز بخصـائص ديناميـة منفـردة، يمكـن استثمارها بتدريب الشباب في مرحلة مبكرة على تحمـل المسـؤولية، وعـلى مواجهـة المواقـف بأسـاليب علميـة، ويتحقـق ذلـك عـن طريـق الممارسـة العلمية، والمشاركة البناءة، وإتاحة الفرص أمام الشـباب للإسـهام في الإنتـاج بصورة ايجابية. وهي أمور تلقي على عاتق الكبار أن يهتموا بنقل خـبراتهم ومعارفهم إلى الشباب على نحو يتيح لهم فرصة استيعاب هذه الخبرات، بما يسهم في نهاية الأمر في تحقيق حسن استغلال طـاقتهم، واسـثمارها لصـالح المجتمع.

2. إن الشباب هم أكثر فئات المجتمع تطلعاً إلى المستقبل، وبالتـالي ينبغـي أن يكونوا هم أكثر الفئـات رغبـة في التطـوير، وتقبـل الحـديث مـن التجـارب الاجتماعيـة. وهـذا يفـرض عـلى مـن يتصـل بهـم مـن الآبـاء، والمـوجهين، والأساتذة، أن يبصروا الشباب بالثوابـت والمتغـيرات مـن العقائـد والأفكـار، حتى لا يجنح بهم ويدرك طبيعة التكامل بين الأصيل والمستحدث، وبالتـالي يمكن عن طريق هؤلاء الشباب تكون المداخل الصحيحة لحـل مـا يتصـوره البعض من تناقض زائف بين ما هو أصيل، وما هو معاصر. وبـذلك ينطلـق الشباب نحو المسـتقبل مـزوداً بقيمـه الأصـلية، وعقيدتـه الدينيـة الثابتـة، ويتقبل في نفس الوقت مصـادر القـوة الحديثـة الكامنـة في العلـم النـافع، والتقنية المفيدة.

3. إن الشباب، إن كانوا يتجهون بحكم تكوينهم النفسي والاجتماعـي إلى نـوع مـن الاسـتقلال في الـرأي، وإثبـات الـذات، إلا أن تـوفر الظـروف الواقعيـة، وتهيئة المناخ المناسب للحوار الموضوعي، وأساليب التنشئة السليمة، يمكـن أن تكون أسساً لتوجيه هذه الطاقات نحو ما يهيوهم لتحمل المسـؤولية في المستقبل، والقيام بالـدور الاجتماعـي المنـوط بهـم، عنـدما ينهـون مرحلـة الإعـداد للحيـاة، وينخرطـون في تنظـيمات العمـل الاجتماعـي في مختلـف جوانبه.

4. ان الشباب بما أتيح لهم من فـرص التعلـيم التـي يوفرهـا لهـم المجتمـع، لا يمكن إغفال نتائج تحقيق هـذه الفـرص في المسـتقبل للمجتمـع نفسـه، ولا يمكن طرح حصيلتها من النتـائج الاقتصـادية للتنميـة، إذ يمثـل الشـباب في الواقع جانباً هاماً من جوانب الاستثمار الاقتصادي والاجتماعي في آن واحد.

ويترتب على ذلك ضرورة تدعيم انتماء هؤلاء الشباب لمجتمعهم، وارتباطهم بأهدافه وقضاياه الأساسية، وفي مقدمتها قضية التنمية

بطبيعة الحال، وبذلك لا ينعزل عن مجتمعه في فترة من أهم فترات البناء والتطور.

هذه هي دعائم المكانة الاجتماعية للشباب في المجتمع بوجه عام، وللشباب الجامعي الذي سوف نركز الحديث عنه بوجه خاص، والتي تفرض علينا ان نوجه اهتمامنا وطاقاتنا في الجامعة إليه. ويؤكد هذا الأمر ما نلاحظه من دراستنا للهرم السكاني في المجتمع، فكبر حجم الجيل الناشيء والشباب، يطرح على المؤسسات التربوية، وعلى الأسرة مجموعة من التحديات تتطلب سياسة رشيدة، وبرامج متنوعة تمكن الشباب من ان يكون قوة ايجابية. على أننا لا يجب أن ننسى ان التقصير في تحقيق ذلك، قد يخلق أزمات نفسية واجتماعية، كما قد يدفع إلى الانحرافات في السلوك الفردي والاجتماعي.

مفهوم التنمية.

ما التنمية؟ وما أهدافها؟ وما مجالاتها؟ وأي مجال يكون للشباب فيه دور واضح وفعال، خاصة ان الشباب نفسه يمثل هدفاً هاماً من أهداف التنمية ومقاصدها؟

نستطيع القول؛ ان التنمية كما هو معروف ومسلَّم به في تكاملها وآثارها ونتائجها العامة هي: "عملية موحدة تستهدف إحداث تغيير كمي وكيفي في المجتمع على مراحل زمنية مخططة". ولقد جرى العرف بين المحللين العلميين لهذه العملية على تقسيمها من قبيل التوضيح إلى مصطلحين؛ تنموية اقتصادية تركز على التغيير في الظواهر الاقتصادية، وعوامل الإنتاج الطبيعية والفيزيقية، وتنمية اجتماعية تهتم بتطوير الموارد البشرية كماً وكيفاً. على ان من الأفضل والاوفق ان نطلق عليهما الجانب الاقتصادي والجانب الاجتماعي للتنمية باعتبارها عملية شاملة... ولما بينهما من تكامل لا

ينبغي إغفال أحدهما، أو تركيز الاهتمام عليه فحسب... ذلك لان الملاحظ ان المجتمعات التي تضع في أهدافها التركيز على التنمية في جانبها الاقتصادي، وما يصاحبه من تطورات سريعة في "تكنولوجيا" التغير المادي، تقاسي هذه المجتمعات من حدوث فجوة ثقافية، تتمثل في الإخفاق في إحداث التغيرات الايجابية في السلوك والعلاقات الاجتماعية اللازمة لمواكبة التنمية الاقتصادية، وإنتاج السلع واستهلاكها. هذا، فضلاً عن الإخفاق في تحقيق الهدف من توزيع ثمرات هذه التنمية الاقتصادية، الذي يتمثل في تلبية الحاجات الأساسية لأفراد المجتمع.

من هنا تتضح أهمية التنمية الاجتماعية، ويبرز أمامنا الجانب الاجتماعي للتنمية، الذي يهدف إلى إيجاد صيغة من التوازن بين الإنتاج السلعي، وإنتاجية الخدمات التي تستند إلى الدور الاجتماعي للعمل الإنساني بوجه خاص، بحيث تهدف هذه الصيغة، إلى تحقيق التكامل بين الجانبين الاقتصادي والاجتماعي، وزيادة مردود كل منهما بالنسبة للآخر. ومن هنا أيضاً، أصبحت قضية التنمية الشاملة من التحديات التي تواجه المجتمعات النامية بوجه عام، والعربية منها بوجه خاص، والتي تركز عليها في جهودها الحكومية منها والأهلية، وتوجه لها امكاناتها الفنية والتنظيمية.

وتعتمد التنمية الشاملة -اقتصادية واجتماعية- على التحريك الفعال لطاقات المجتمع، الذي يتحقق من خلاله التفاعل الإيجابي بين هذه الطاقات، التي يمكن تحديدها في؛

- الطاقات البشرية التي تتمثل في حجم السكان عامة، والشباب خاصة، بما يملكون من قدرات معرفية، وخبرات ومهارات إنسانية، في مجالات العمل الاجتماعي المتنوعة، وهذه الطاقات لا بد أن تتناسب مع طموحات المجتمع في حاضره ومستقبله كماً وكيفاً.

- كما تتمثل في الطاقات المادية والموارد الطبيعية، التي لا بد من اكتشافها واستثمارها والمحافظة عليها، وصيانتها، وعدم تبديدها.
- وكذلك تتمثل في الطاقات المعنوية التي تتمثل في القيم الدينية والثقافية التي تنعكس على سلوك الأفراد والجماعات، وفي حوافزهم ودوافعهم الإنسانية وفي تعاملهم مع بعضهم البعض، ومع المواقف الاجتماعية والظروف المحيطة. وهذه الطاقات ينبغي ألاّ تعرض لأي إهتزاز أو إضطراب، خاصة لدى الشباب، لأن ذلك قد يشكل عائقاً أمام جهود التنمية. وقد يتجسد هذا العائق في ظواهر التواكل، أو الانحرافات، أو تغليب المنفعة الفردية، وكذلك يبدو في اختلال التوازن بين الأخذ والعطاء، وعدم وضوح العلاقة بين مطالب الاستهلاك والرفاهية من ناحية، وبين مطالب الإنتاج والجهد والمسؤولية من ناحية أخرى. هذه العوائق كلها ينبغي ألا تنشا بين أفراد المجتمع بوجه عام، أو بين الشباب من أعضائه بوجه خاص. أضف إلى ذلك ما يتوفر للمجتمع من طاقات توجيهية تتمثل في القيادات الاجتماعية القادرة على توجيه التنمية، وعلى شحذ الطاقات المجتمعية الأخرى، وحشد قواها، وتعميق التفاعل فيما بينها، ودراسة الواقع، وتطبيق المناهج والأساليب العلمية، واستخدام وسائل التقنية اللازمة لتحريك هذه الطاقات جميعها.

نخلص من هذا التحليل إلى أن (التنمية هي عملية إرادية تهدف إلى صياغة بناء حضاري متكامل، يؤكد فيه المجتمع هويته وإبداعه، وبالتالي لا تتحقق التنمية لمجرد التقليد والنقل لأنماط وأساليب تستخدمها مجتمعات أخرى تختلف في ظروفها وأوضاعها ومواردها وقيمها. كما أنها تهدف إلى تحقيق كرامة الإنسان باعتباره الغاية والهدف، وتعمل على تحقيق إشباع

متزايد لحاجته الروحية والمادية والاجتماعية والثقافية، وتوفير الطمأنينة له في حاضره ومستقبله. والإنسان -كل إنسان- هو في نفسه صانع هذه التنمية ومحركها، يتوقف على جهوده وطاقاته، إنجازها واستمرارها. ويعني ذلك أن العامل الإنساني هو أساس كل جهد تنموي، وبالتالي لكي تنجح هذه الجهود التنموية، ينبغي أن تتاح للمواطن فرص المشاركة في الجهود، كما يكون له فرص المشاركة في الجهود، كما يكون له فرص المشاركة في جني الثمرات. وباعتبار أن هذه المشاركة الإيجابية هي وسيلة فعالة، فإنها في حاجة إلى تنظيم يستند إلى سياسة اجتماعية واضحة، تهدف إلى تحقيق مشاركة أفراد المجتمع، كل حسب قدراته وطاقاته، في تحمل مسؤولية العمل، وتنفيذ الخطط، واكتساب المهارة والمعرفة اللازمتين لممارسة العمل المنتج. كما أنها تهدف، في نفس الوقت ، إلى المشاركة في الاستفادة من نتائج العمل وجني ثمراته على أساس من العدل الاجتماعي الشامل.

دور الشباب:

اذا كانت المشاركة في جهود التنمية هي أهم الوسائل الفعالة في تحقيق أهدافها، فهل للشباب بوجه عام، والشباب الجامعي بشكل خاص، دور تتحقق له من خلاله عملية المشاركة؟ ان دور الشباب في الواقع، يجسد انعكاسا لدور المؤسسات التي تسهم في تشكيل هذا الدور، منها الأسرة التي تعتبر من أهم النظم الاجتماعية المؤثرة في اكتساب الشباب لأدوارهم الاجتماعية، وبخاصة ما تغرسه في مرحلة الطفولة من قيم ومثاليات، ومنها المؤسسات التعليمية من مدارس وجامعات، ومنها وسائل الإعلام ببرامجها ووسائلها.

وفي ضوء ما استخلصناه من أن دور الشباب يجسد انعكاساً لدور المؤسسات التي تسهم في تشكيل هذا الدور، نستطيع القول إن على

الجامعات والمؤسسات التعليمية بوجه عام، أن تواجه مهمة رئيسية تتلخص في العمل على مساعدة الشباب على اكتشاف دورهم الاجتماعي في الحاضر والمستقبل، وخاصة في المجالات التنموية، وبهذا يمكن تهيئتهم لأداء هذا الدور على أعلى مستوى من الكفاءة ومن الفاعلية، وعلى كل من يتصدون للتوجيه العلمي والاجتماعي للشباب، سواء كانوا أساتذة أو أخصائيين اجتماعيين، أن يقدموا لهم الأسس المدروسة، والقدوة الواعية، التي ترتكز على فهم علمي ودقيق لأهداف مجتمعهم، وإدراك واعٍ لقيمه الإيجابية، وأن يركزوا بوجه خاص على الجوانب الإيجابية، والعقلانية، ومن أبرز هذه القيم، قيم البحث العلمي الدقيق المتفهم لأوضاع المجتمع وأهدافه، وللبرامج التنموية التي يسعى إلى تنفيذها، وبالتالي يتحقق الوعي التنموي الذي يعد حافزاً أساسياً لتهيئة الشباب للإسهام في تنفيذ هذه البرامج، والمشاركة في تحقيق أهدافها، ومن ثم يتكون لدى الشباب تصور واضح للنظم والخطط والوسائل المرتبطة بالتنمية. وإذا قلنا إن على الجامعات العبء الأكبر في ذلك، يصدق القول كذلك على الدور الفعال للأجهزة الاجتماعية الأخرى كالأسرة، والمدرسة، ووسائل الاتصال، التي يمكن أن تتعاون كلها كمصادر معرفية للتنمية بأهدافها ومجالاتها وخططها.

إعداد الشباب:

وينطوي تحت هذا الدور إعداد الشباب إعداداً واعياً لمواجهة متطلبات عصر العلم والتقنية، كمصادر للطاقة المحركة لكل الأساليب التي يتضمنها الدور الإيجابي الذي ينتظر أن يمارسه. وينبغي علينا أن ندرك أن التقدم العلمي والتقني، لا يمكن أن يأخذ كامل مداه وأبعاده إذا لم تعبأ طاقة الشباب، في إطار هدف تنموي شامل، وحينئذٍ يتحقق التفاعل والتكامل

بين التقدم العلمـي والتقنـي، وبـين الأهـداف التنمويـة ووعـي الشـباب بهـا، وممارسته للدور الإيجابي في سبيل تحقيقها.

وهنا -أيضاً- يبرز سؤال هام.. كيف يأخذ هذا التصور طريقه إلى التنفيذ بين الشباب الجامعي بوجه خاص؟ من بديهيات الأمور -كما قدمنا- أن الجامعات مؤسسات تربوية ذات دور هام في التنمية الاجتماعية والاقتصادية. والجامعة بكل مقوماتها من قوى بشرية ومادية، ينبغي أن تعمل على إعداد الشباب ذوي المهارات الفنية والإدارية في مختلف التخصصات التي يحتاج إليها المجتمع كي يلتقوا بالعمل في كل المواقع الإنتاجية، ومواقع الخدمات، وذلك كنوع من الاستثمار لهذه القوى البشرية. وفي سبيل الإعداد لهذه القوى من الشباب، ينبغي أن تعمل الجامعة على توثيق ارتباطهم بمجتمعهم وبيئتهم، في الفترة التي يكون هؤلاء الشباب أعضاء في هذه المؤسسة التربوية والاجتماعية ذات الأثر البالغ على الحياة والمجتمع. ويتحقق ذلك حين يقضي الطلبة الجامعيون بعض أوقاتهم في الاشتراك في برامج تعد لخدمة البيئة وتنمية المجتمع المحلي المحيط بهذه الجامعة، ويقومون خلال هذا الوقت بصرف جانب من نشاطهم في عمل منتج وذوي نفع عام. والملاحظ الآن، أن كثيراً من الدول تضع البرامج التي يشترك فيها طلابها في الجامعات، بصورة أو بأخرى في مشروعات الخدمات الاجتماعية التي تتفق واحتياجات البيئة المحلية.

الشباب.. والمجتمع:

ولكي يزداد ارتباط شباب الجامعة بمجتمعاتهم المحلية، وبالمجتمع بوجه عام، يمكن أن يمارسوا أثناء فترة دراستهم بعض الأنشطة التي تحقق هذه الغاية. ويمكن ان تكون نتائج هذه الممارسة واحدة من الأسس التي تراعى عند تقويمهم في فترة حصولهم على درجاتهم العلمية.

ويتحقق هذا عندما تضع الجامعة في خطة الدراسة بها نوعاً من البرامج الحقلية للتخصصات الجامعية المناسبة، بحيث يمكن الربط بين هذه الأنشطة التي تهدف إلى خدمة المجتمع، وبين فروع الدراسة الجامعية.

وينجح هذا الأسلوب في الربط بين شباب الجامعة، وبين المجتمع حينما يتم الاقتناع بالقيام به على أساس تطوعي بتدعيم من وسائل الإعلام الجامعي، ولجان الإرشاد والاساتذه في الجامعة. والتطبيق العملي لهذه الفكرة، يمكن أن يتم من خلال مشروعات كثيرة بعضها على المستوى العام، وبعضها الآخر على المستوى المحلي. ويكون الإشراف على تنفيذ هذه الخطة مشتركاً بين الأقسام العلمية، وبين الهيئات المحلية كالأندية والمدارس، وغيرها من الهيئات والمؤسسات العامة، وتنفيذ هذه المشروعات يمكن أن يتحقق، إما في "العطلة الصيفية"، وإما على فترات تتناسب مع خطة الدراسة الجامعية، ويمكن ان يكون الاشتراك فيها بصفة دورية حتى تتاح الفرصة للجميع للاشتراك فيها من جهة، والاستمتاع بالعطلة من جهة أخرى.

وعلى مستوى الجامعة يمكن أن تتكون لجان عامة من الأساتذة والطلبة، تقوم بوضع خطة عامة مشتركة بين الأقسام ذات التخصصات التي يمكن لها أن تتكامل في أنشطتها كالدراسات الاجتماعية والطبية معاً، أو الدراسات الاجتماعية والهندسية معاً، أو العلوم الإدارية وبعض التخصصات الأخرى.. وهكذا تشترك هذه الأقسام في وضع خطة لمشروع عمل متكامل الجوانب، يتناسب مع أهدافها وطبيعة الدراسة فيها، ويتفق كذلك مع تخصصها العلمي. على أن تتولى الجامعة الإشراف العام على المشروع، وتحديد الفترة الزمنية لتنفيذه، وبهذا تجمع الجامعة بين تحقيق الهدف التربوي وتحقيق النفع العام.

2

الفصل الثاني

مفهوم التخلف الآخر

الفصل الثاني

مفهوم التخلف الآخر

لقد أصبحت كلمتا "التقدم" و"التخلف" مفردتين متداولتين في الحديث عن مجتمعات المعمورة في القرن العشرين، وعلى هذا الأساس جاء تقسيم العالم اليوم إلى أصناف تقرب أو تبعد من كلا هذين المصطلحين. فهناك مجموعة العالم الأول التي تشمل أساساً المجتمعات الغربية الصناعية واليابان. أما مصطلح العالم الثاني فطالما يطلق على المجتمعات الاشتراكية الغربية بقيادة الاتحاد السوفييتي. أما العالم الثالث فهو يطلق على المجتمعات النامية.

وأخيراً بدأ بعض المختصين في قضايا التنمية والتخلف في تقسيم مجتمعات العالم الثالث إلى أنواع أخرى سُميت بالعالم الرابع أو الخامس لشدة انخفاض مستوى الدخل القومي ولمدى تدهور الأوضاع ومرافق الحياة عموماً في هذه المجتمعات. وقد أطلقت الأمم المتحدة على هذا الصنف من شعوب العالم بالمجتمعات الأكثر فقراً. وفي كل هذه الاستعمالات لكلمة "التخلف" يكاد هذا الأخير يفيد دائماً -عند الأكاديميين والناس العاديين على السواء- التخلف الاقتصادي والاجتماعي والصحي والديمغرافي، أي التخلف الذي يمكن قياسه بسهولة بمؤشرات كَميَّة. أما مظاهر التخلف الأخرى مثل التخلف على المستوى الثقافي والنفسي لشعوب العالم الثالث فنكاد لا نسمع عنها شيئاً في البحوث الأكاديمية على الأقل. ومن هنا جاء اهتمامنا بما

سميناه "بالتخلف الآخر"، أي التخلف الثقافي -النفسي كأحد جوانب التخلف في مجتمعات العالم الثالث. لان التخلف في نظرنا ظاهرة متعددة الرؤوس منها المادي ومنها المعنوي.

و"التخلف الآخر" يمس أساسا الشخصية البشرية، إذ ان مكونات هذه الأخيرة هي إلى حد كبير عناصر ثقافية نفسية. وواضح ان اي فهم لعملية التنمية في المجتمعات النامية يبقى قاصراً إن هو لم يأخذ بعين الاعتبار ملامح "التخلف الاخر" وانعكاساتها على قضايا التنمية.

فالشخصية المتخلفة ثقافياً ونفسياً طالما يغلب عليها عامل عدم الثقة بالنفس واحتقار الذات. ومن ثم تفتقر فيها الدوافع للإنجاز والتغلب على صعاب التنمية. وهكذا فالخروج من التخلف بمعناه العام لا بد ان يشمل التخلص من "التخلف الآخر" وعقده.

ان التخلف الآخر يشمل مستويين؛

أ- التخلف الثقافي.

ب- التخلف النفسي.

أما التخلف الثقافي فله ثلاثة ملامح:

1. التخلف اللغوي، الذي يتمثل عادة في تخلف استعمال لغة المجتمع الوطنية، وذلك لانتشار استعمال لغة أجنبية محلها في كثير من الميادين خاصة العصرية منها. ان منافسة اللغة الفرنسية للعربية بمجتمعات المغرب العربي مثال على ذلك.
2. التخلف الثقافي، الذي يمس ما يمكن تسميته بالزاد المعرفي الذاتي وفي العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية والاجتماعية على السواء كمجتمعات الوطن العربي ومجتمعات العالم الثالث. ففي العصر الحديث أصبحت

هذه المجتمعات تعتمد إلى حد كبير على الزاد المعرفي الغربي في كل هذه العلوم.

3. التخلف الذي تعرضت له قيم هذه المجتمعات، فاحتكاك هذه الأخيرة في العصر الحديث بالغرب الغالب سمح بانتشار قيمه بين الشعوب المغلوبة خاصة قيم التحديث والعصرية. ومن ثم تلاشت بعض القيم التقليدية من جهة ودخلت من ناحية أخرى بعض القيم في صراع مع القيم الغربية الغزية. ومن ثم جاء تصورنا للتخلف (للتفقير) على المستوى القيم الأصلية (الذاتية) لهذه المجتمعات.

وباختصار فإن هذه الأصناف الثلاثة للتخلف الثقافي تمثل في النهاية تفقيراً (تخلفاً) لهذه العناصر الثلاثة وهي: اللغة والمعرفة الثقافية والعلمية والقيم الثقافية. وكل هذه العناصر هامة جداً في تركيبة ثقافات مجتمعات العالم الثالث.

ان هذه الملامح الثلاثة للتخلف الثقافي تحدث بدورها ظاهرة ما أطلقنا علية أعلاه بالتخلف النفسي.

ويأخذ هذا الاخير شكلين:

1. ظاهرة الشعور بمركب النقص لدى شعوب العالم الثالث إزاء المجتمعات الغربية.
2. ان التخلف على مستوى القيم يمكن ان يؤدي في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث إلى ما أطلق علية علماء الاجتماع المعاصرون بالشخصية المضطربة التي يمكن ان تبدو عليها أعراض نفسية مرضية .

3

الفصل الثالث

الثقافة ومفهومهـا

الفصل الثالث

الثقافـــــة ومفهومهـــــا

مفهوم الثقافة عند العرب

ان الثقافة بالمعنى العربي اللغوي الأصلي تعني"سرعة التعليم والحذف والفطنـة وثبات المعرفة بما يحتاج المرء إليه"، كما ان العرب قد عرفوا الثقافة قبل الغرب لكـنهم لم يتوسعوا في تعريفها ولم يتوسع مدلول ومفهوم وماهية الثقافـة في الفكـر العـربي إلا حين اتصـل بـالغرب التـي غـيرت كثـيرا مـن المـوازين والمفـاهيم والمعـايير والمقـاييس والماهيات.. وهذا أمر طبيعي لا يختلف مع ناموس الحياة.. وهو أن لكـل جديـد أثـره وتأثيره في صناعة المتغيرات، واستبدال السائد التقليدي بالجديد المتغير.

مفهوم الثقافة عند الغرب

يقول الإنثرويولوجي الإنجليزي (ادوارد بيرنـت تـايلور) في أول فقـرة مـن كتابـه (الثقافـة البدائيـة) عـام 1871م ان الثقافـة هـي " ذلـك الركـب الـذي يضـم المعرفـة، والقيادة والفن، والأخلاق، والقانون، والعادات، وسائر القدرات والعادات التي يحتاجها الإنسان كعضو في المجتمع". ان الغرب أجهد نفسه في تعريف الإنسان المثقف الثقافـة نفسها وما يحتوي عليه هذا المفهوم من معطيات العقل الإنساني.. في كل مرحلـة مـن مراحل التطور وظهور علوم ومعارف جديدة، حـاولوا توسـيع هـذا المفهـوم.. وبالتـالي تشعبت المفاهيم وتعددت بتشعب العلوم

والمعارف الجديدة، وتعدد المراحل التاريخية لمعطيات هذه العلوم والمعارف الجديدة التي مصدرها العقل الإنساني.

ورد في المعجم "وبستر الدولي الجديد الثالث" ان الثقافة تتمثل فيما يأتي

1. فن أو عملية الزراعة.
2. عملية التنمية الناتجة عن التعليم والنظام، والخبرة الاجتماعية.
3. استنارة وامتياز الذوق اللازمين للممارسة الفكرية والجمالية المتمثلة في:

أ. المضمون الفني والفكري للحضارة .

ب. تنقية السلوك، والتذوق، والفكر.

جـ التعرف على الفنون الجميلة والإنسانيات والمجاملات الفسيحة للعلم وتذوقها، باعتبارها نوعا من المهارة أو المعرفة الإدارية أو التقنية أو المهنية.

4. الإطار الجمالي للسلوك البشري ومنتجاته، والمتمثلة في الفكر والكلام والعمل، والمعتمد على قدرة الإنسان على التعلم، ونقل المعرفة إلى الأجيال المتتالية من خلال استعمال الأدوات واللغة ونظم التفكير المجردة.

ومن خلال هذا التعريف نستنتج ما يأتي:

1. انه أدرج المضمون "الحضاري" ومضمون "المدنية" أو التقدم "بعضها رغم ان البعض يفرق بين المضمونين.. فكأنه بهذا التعريف يجمع بين مفهومين "الحضارة والمدنية" ويجعلها تحت "معطف" الثقافة.
2. رغم ان مفهوم الحضارة في الفكر الأوروبي، خاصة الفكر الألماني ينظر إلى ان الثقافة جزء من الحضارة الأكثر شمولية إلا ان تعريف "معجم وبستر" يجعل جزء من الثقافة وبالتالي فالثقافة أكثر شمولية من الحضارة.

3.
4. ان هذا التعريف يكاد لا يبقي شيئاً لغيره من مفاهيم المعطيات الأخرى للعقل الإنساني.. وكأنه بهذا التعريف يصادر كل مضامين الظواهر لصالح الثقافة.
5. اذا كان العرب القدامى قد إتفقوا على تعريف الثقافة من خلال تعريفهم للإنسان المثقف فإن تعريف "المعجم" قد تأثر بتعريف الثقافة من خلال تعريف الإنسان المثقف.

وحين نأتي إلى المجمع الفرنسي الذي ناقش كلمة ومفهوم "الثقافة" في جلسة (حزيران) عام1972م الخاصة بالمعجم انطلاقاً من رغبته في اعادة مفهوم الثقافة، نجده يعرف الثقافة على أنها "العبقرية الإنسانية مضافة إلى الطبيعة بغية تحرير عطاءاتها وإغنائها وتنميتها".

واذ ذاك يتناول التعريف جملة الأعمال والتقنيات الرامية إلى جعل الأرض أخصب، ويتناول تربية الحيوانات، كما يتناول المزارع. والثقافة تدل أيضا على انكباب الإنسان بصورة منهجية على تنمية ملكاته الفطرية بدراسة الآداب والعلوم والفنون. وكذلك بالملاحظة والتفكير.

ونلاحظ على تعريف المعجم الفرنسي هذا مجموعة من النقاط هي:

1. أنه جمع بين الثقافة العقلية، والثقافة الحسية.
2. أنه قسَّم الثقافة إلى عدة أنواع.
3. أنه جعل من الثقافة.. ثقافة عامة.. وثقافة خاصة.
4. أنه جعل الثقافة جزء من الحضارة حسب الفكر الأوروبي عموماً، والألماني خصوصاً على عكس تعريف "معجم وبستر" الذي جعل الحضارة جزء من الثقافة.

وحين نصل إلى الباحثين العرب المتحدثين نجد أنهم قد تأثروا في تعريفهم للثقافة ومفهومها بما هو حاصل في الغرب فتوسعوا في تعريفاتهم، وتركوا

المفهوم السائد لدى قدماء المفكرين واللغويين العرب. ومن هؤلاء الباحثين المحدثين الدكتور مجدي وهبة في معجمه " مصطلحات الأدب" الذي يعرف الثقافة بأنها تتمثل في:

أ- رياضة الملكات البشرية بحيث تصبح أتم نشاط واستعداد بالإنجاز.

ب- ترقية العقل والأخلاق، وتنمية الذوق السليم في الأدب والفنون الجميلة.

ج- إحدى مراحل التقدم في حضارة ما.

د- السمات المميزة لإحدى مراحل التقدم في حضارة من الحضارات.

والدكتور وهبة في تعريفه هذا لم يخرج عن اغلب التعريفات الغربية فكأنه لم يأت بجديد بقدر ما تأثر بالآراء التي أوردها الباحثون في الغرب.

ونجد "الموسوعة الثقافية" تعرِّف الثقافة في الانثروبولوجيا في قولها "لا تتضمن الثقافة وسائل الحضارة الحديثة، ولكنها تشير ببساطة إلى أنماط السلوك السائدة في المجتمع البشري.. وتشمل كذلك المعتقدات، والمبادئ الأخلاقية، واللغة والموسيقى، والفن، ووسائل انتقالها باعتبارها تراثاً اجتماعياً إلى الأجيال التالية، وقد تمحى أو تتكيَّف عن طريق الحروب والغزو، وغالبا ما تحدث تغيرات في الثقافات نتيجة تأثير خارجي في الثقافة ذاتها، كما تؤدي التطورات التكنولوجية الحديثة كذلك إلى تغيرات سريعة في الثقافة. اما التطويع الثقافي، فهو عملية تقبل وامتصاص لعناصر ثقافة أخرى، مثل ما يطرأ على ثقافة أحد المجتمعات المتأخرة، نتيجة اتصاله الطويل بمجتمع ثقافته أكثر تطوراً، يقف من موقف المسيطر".

ونلاحظ على هذا التعريف للثقافة الأمور التالية:

1. أنه ربط بين التراث والثقافة. فجعل من الثقافة تراثاً اجتماعياً ينتقل إلى

الأجيال التالية.. بينما نجد أن التراث بمرور الزمن (التقادم) -حسب تعبير رجال القانون- يتحول إلى جزء من ثقافة الأمة أو الجماعة.

2. أنه يبرز تأثير الحروب والغزو على الثقافة.. وهذا أمر صحيح يشهد به التاريخ.
3. أنه يؤكد مقولة ابن خلدون في مقدمته "المغلوب يقلد الغالب"، فالمجتمع الواقع تحت السيطرة المتطورة والقوية هو مجرد مجتمع ضعيف مغلوب على أمره.. والسيطرة هنا قد لا تكون لها علاقة بالظواهر السياسية كالاستعمار، والحماية والاستيطان، هذه الظواهر التي تصحبها عادة القوة العسكرية، والتسلط والقمع وممارسة سلب حقوق المجتمع المغلوب فحسب، بل قد تتمثل السيطرة والغلبة من خلال الثقافة المتطورة المتقدمة والمتجددة في تأثيرها على المجتمع المغلوب الذي لا يمتلك مثل هذه الثقافة القوية.. فالقوة والغلبة قد لا تكون من خلال الحرب والغزو والاحتلال فحسب، وإنما الغلبة والقوة أيضاً في قدرة الثقافة المتطورة في مواجهة الثقافة المتخلفة.. والتغلب على الأخيرة.

وهذا يؤكد المقولة التاريخية المعروفة "إذا كانت روما قد غزت اليونان بجيوشها وقوتها العسكرية، فإن اليونان قد غزت روما بفكرها المتقدم وفلسفتها المتطورة" أو بما معناه.. كما كان للعرب تأثيرهم على الغرب في كثير من مجالات الثقافة في العصور الوسطى.

الثقافة العربية.. الماضي والحاضر والمستقبل

ولكي نستكمل حديثنا عن "تعريف الثقافة ومفهومها" نرى لزاماً علينا ان نورد تعريف الثقافة العربية ومفهومها لشعورنا بأنها ثقافة متميزة شاملة مستقلة لها عطاءاتها وإبداعاتها رغم ما مر بها من النكبات والنكسات. فقد

حاولت "الخطة الشاملة للثقافة العربية" التي وصفتها "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" ان تضع مفهوماً أو تعريفاً لماهية "الثقافة" رغم أنها لم تتخلص من التوسع والتشعب. من هذا المنطلق نجد أنه من الإنصاف أن نعطيها حقها من التعريف بها مع طوله رغم اختصار الكثير من بنودها التي رأينا انها لا تؤثر على محتواها العام.. جاء في الجزء الأول من الخطة في تعريف الثقافة ومفهومها وتطلعاتها نحو المستقبل تحت عنوان "الثقافة العربية في إطارها القومي والعالمي" العناصر أو المواد التالية:

1. ان ما تفرزه الثقافة من القضايا الروحية والاجتماعية، وما تتفتح عنه من الظواهر التي لم تسبق حجماً ونوعاً وتنوعاً، لا يلقي ظلاله على الحاضر فحسب، ولكن على صور المستقبل في علاقات الإنسان بأخيه الإنسان حتى ليكاد العصر ان يكون عصر ثقافة.
2. مصطلح الثقافة يعبر عن خصائص عديدة للثقافة.
3. الثقافة ظاهرة إنسانية.
4. إنها قوام الحياة الاجتماعية وظيفة وحركة.
5. إنها عملية إبداعية متجددة، تبدع الجديد والمستقبلي من خلال القرائح التي تتمثلها وتعبر عنها.
6. إنها إنجاز تراكمي متنامٍ مستمر تاريخياً. فهي بقدر ما تضيف من الجديد، تحافظ على التراث السابق، وتجدد من قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحاً ومساراً ومثلاً.
7. إنها نشاط إنساني بالغ التعقيد والعمق والتشعب.. والمصطلح الذي يعبر عنها قد يبدو التعريف به في ميسور كل امريء، من كل مستوى. لكن هذا التعريف يظل نسبياً، قاصراً على الاحاطة، محتملاً للضيق والسعة. عُرضة إلى اللبس أيضاً.

8. من أبواب الإفهام في مفهوم الثقافة اختلاطها بمفهوم الحضارة، ففي الغرب ظهرت الكلمتان في عصر واحد هو القرن الثامن عشر وتباينت معانيها من موقع فكري إلى اخر.

9. وعلى أي حال فقد نستطيع اختصار مفاهيم الثقافة العديدة المتنوعة في اثنين؛

أ. الثقافة بالمعنى (الانثروبولوجي) الذي يشمل كل فعالية للإنسان تميزه عن أفعال الطبيعة.. فالثقافة بهذا الشكل الواسع هي الإنسان بوصفه فاعلا منفعلا، ويدخل فيه كل ما أنتج البشر في الحياة من إنتاج مادي أو غير مادي.. وهي علاقة الإنسان بمحيطه وبموطنه الطبيعي، وبإبداعاته المادية والجمالية، وبذاكرته الجماعية، والهيكل الشامل أو البنية العريضة للوعي بهذه العلاقة، وبالذات الجماعية.

ب. أما المعنى الثاني فيرتبط بنوع الأساليب وأشكال القيم التي يبتكرها الإنسان ليكسب إنسانيته معناها الخاص.. وفي هذا السياق فالثقافة تشمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعناهما الواسع، وما يتصل بهما من المهارات، أو يعين عليهما من الوسائل، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى، مؤثرة فيها متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها.

10. وبالرغم من ان الثقافة مفهوم كلي، ومن الصعوبة وضع الحد الفاصل بين هذين المفهومين لها، ومن صعوبة الفصل الكامل بين قطاعها الخاص، وبين القطاعات الأخرى المتصلة بها لعلاقتها العضوية والوظيفية والتنظيمية بتلك القطاعات، كالنظام التعليمي والإعلامي والعلمي إلا أننا سوف نأخذ بهذا المعنى الثاني لعدة أسباب (أوردتها الخطة).

11. إن الثقافة بوصفها الصورة المميزة للأمة ترتسم عملياً في؛

أ- تراث الأمة المادي والروحي عبر العصور.

ب- سلوكها الحياتي، وإبداعها المتصل المتطور، ومثلها العليا المحركة.

ج- طموحاتها المستقبلية.

د- لا ينفصل واحد من المسارات الثلاثة -السابقة- عن الآخر لأن الثقافة وحدة كيانية متصلة بصميم تكوين كل أمة.. وهي الضمير الجماعي لها والناظم لتماسكها وإرادتها الكلية.

وترى الخطة أن الثقافة العربية مثلها كمثل كل ثقافة أصلية ثنائية الدور، أي أنها ذات وظيفتين؛ قومية.. إنسانية معاً.

12. ان الثقافة العربية تظل واحدة من أعرق ثقافات الدنيا في الزمن، وأرساها امتداد في المكان، وأكثرها غنى في العطاء القومي والإنساني على السواء.

13. قامت جذور هذه الثقافة العربية على الإسلام في المنطقة العربية على شرقي البحر المتوسط.

14. ولقد كان دور الثقافة العربية في إطار الثقافة العالمية على الدوام دور إبداع وإضافة وعطاء، وظلت رغم خصوصيتها ثقافة إنسانية شاملة رغم كل ما أحاط بها من تراجع خلال القرون الخمسة الأخيرة.

15. كانت الثقافة العربية -وما تزال ككل الثقافات الأخرى الأصلية- ذات وظيفة تاريخية أساسية في توحيد الأمة العربية في الوجدان العميق ومنابع الإبداع، ومناهج التفكير. وكل خطط التنمية الثقافية العربية إنما تنصب بين ما تنصب على وظيفتها التوحيدية.

16. والثقافة العربية إلى جانب هذا تراث عريض بقدر ما هي حاضر ثقافي عريض أيضاً.. وهي تضم في ثناياها ألوانا من الثقافات المحلية التي تختلف حسب الوضع الجغرافي ولقد أسهم الكثير منها في تكوين الثقافة الإسلامية. واحتضنت هي بدورها عطاء تلك الثقافات بطبيعة السماحة

الإسلامية فيها، واعتبرته جزءا منها، ومن كيانها الأصيل ومن تجاربها الثقافية المتنوعة.

17. على ان التنوع لا يعني التعدد الثقافي والصراع والتمزيق للوحدة الثقافية العربية.

18. وأخيراً، فإن الأمة العربية كما صنعت ثقافتها على مر العصور، فإن هذه الثقافة قد صنعتها بدورها أيضا، وكونت هويتها، وحافظت عليها.. وتكاد الثقافة العربية تنفرد بين الثقافات الإنسانية المعاصرة باستمرارها الموصول عبر القرون عن طريق أداتها التعبيرية "اللغة العربية".. وقد حملت الثقافة العربية، وأداتها العربية، رسالة الوحدة بين العرب وغير العرب.

19. إن المثقف العربي في هذا العصر متصل برغمه بآفاق ثورية التجدد والتوسع من العلوم والمعارف، وأنواع الخبرات والممارسات في الحياة التي توفرها له الثقافة العربية في استمرارية خطوطها التقليدية، وثمة هوة متزايدة الإتساع باستمرار بين الثقافة التي نحياها والتي ترتسم ملامحها في الغد،وردم الهوة بين الثقافتين من أولى الواجبات في أي تخطيط مستقبلي.

20. إن دور الثقافة في حياتنا القومية المعاصرة يتضمن بالضرورة؛

أ- زرع الثقة والأمل في الجماهير العربية من جديد بعد الهزائم والنكبات والاحباطات التي أصابتها.

ب- وضع الأسس الفكرية للطفرة الحضارية النوعية التي تحتاجها الأمة في هذا العصر دون التفريط بالقيم الروحية والقومية والإنسانية.

ج- إعادة تأكيد المحاور الأساسية والأهداف الكبرى للأمة العربية التي دار حولها نضال جماهيرنا منذ عصر النهضة؛

- الاستقلال والتحرر في مواجهة الهيمنة الأجنبية والاستلاب.

- الوحدة القومية في مواجهة التجزئة والاقليمية الضيقة.
- الديمقراطية في مواجهة الاستبداد.
- العدالة الاجتماعية في مواجهة الاستقلال.
- التنمية الذاتية في مواجهة التخلف أو النمو المشوه.
- الأصالة في مواجهة التغريب والتبعية الثقافية.
- الحضور القومي بين الأمم بالإبداع والإنتاج في مواجهة حضارة الاستهلاك والتقليد.

21. تطرح هذه المحاور السبعة كعناصر عضوية مترابطة في مشروع قومي حضاري كبير.. والثقافة بكل رموزها التعبيرية وقدراتها التعبوية، وشحناتها الوجدانية -هي جزء لا يتجزأ- من كل محور، وهي التي تعطي المشروع كله قوته المعنوية، وإطاره العقلاني والحضاري. وهي التي تحقق فيه التوازن بين قيم الحركة (التجديد) وقيم الثبات (المحافظة) بحيث لا تطغى واحدة فيها على الأخرى، وبحيث لا تستقطب جماهيرنا العربية وتضعها في خصام مع الزمن؛ فريق يخاصم الماضي، وفريق يخاصم المستقبل.

ماذا بعد هذا.. إننا لو أردنا التوسع في تعريف الثقافة ومفهومها لوجدنا أنفسنا أمام مجموعة من القضايا المتصلة بالثقافة إتصالا حميماً كالإعلام.. والتعليم.. ومناهج التعليم.. والتراث.. وانفجار المعلومات.. وإقليمية الثقافة وعالميتها.. وعملية التأثر والتأثير.. والمكتبات.. وغيرها من المظاهر الداخلة في صميم الثقافة.

4

الفصل الرابع

البحث العلمي والمجتمع

الفصل الرابع

البحــث العلمــي والمجتمــع

نشأة البحث العلمي:

منذ أن أسفر العقل البشري عن تفكير واعٍ، دأب الإنسان دائماً متصلاً، على استطلاع العالم الطبيعي الذي يعيش فيه، ويكون هو جزءاً من أجزائه مهما تطورت نظرته على مر القرون، في صلة هذا الجزء -الإنسان- بسائر الأجزاء من أحجار ونبات وحيوان، وفي علاقة الأرض بأجرام الكون من حواليه. وقد اندفع إلى هذا الاستطلاع بشهوة وحيرة تلحّان عليه بأن يفهم الظواهر المتعددة المعقدة التي تحيط به، وأشكال الاحياء التي تشاركه الحياة على سطح الأرض، وأنواع المواد التي يجدها بين يديه ومن حوله، وجارت شهوة الفهم رغبة قوية في الانتفاع بما يكسبه من معرفة وتجربة، لتحقيق أغراض عملية تنيله بعض السيطرة على بيئته وتيسر عليه عناء العيش.

الى هذه الأصول الغامضة، المتعثرة، المتغلغلة في التاريخ، ترتد المعرفة العلمية، التي تجري بشقيها، النظري والعملي -الفهم والمنفعة-، في تاريخ الحضارة، كالجداول الصغيرة تنحدر من الجبال في مخارم الصخور، وتنساب في السهول حيث تتلاقى مرحلة بعد مرحلة، حتى تصير الانهار الزاخرة الماضية على عباب الحضارة، الذي لا يسبر غوره أو مداه.

ينمو العلم في هذا العصر نمواً يكاد في سرعته وتسارعه ان يفوق كل تقدير محكم أو حتى كل تخيل وثاب. فعلى روعة ما كشفه الإنسان على مدى العصور، وما طبقه أهل الصناعة والزراعة والطب وغيرها، من مبادئه وحقائقه في إرساء مؤسسات الحضارة على دعائمها، فقد ذكر العلامة أوجيه، ان العلم يتضاعف مقداره كل عشر سنوات، على حين لا تتضاعف النشاطات الحضارية الأخرى الاّ في أربعين عاماً على المعدل.

أهمية البحث العلمي:

من السمات البارزة للعصر الحاضر، البحث العلمي والدور الكبير الذي يلعبه في الإسراع بوتائر التنمية. فقد أصبح البحث العلمي والتقني أحد الوسائل الرئيسية لتبؤ الدول مركزاً مرموقاً وأحد المعايير التي يقاس بها مدى تقدم الأمم.

لقد لعب العلم دوراً متزايد الأهمية في زيادة قوة ومنعة ورفاهية الدول المتقدمة، وبدأ الفرق يتزايد ما بين الدول المتقدمة والنامية، واستمرت أهمية العلم والتكنولوجيا في التنمية حتى تحول العلم نحو قيادة التكنولوجيا وتحول من نشاط تمارسه مجموعة صغيرة من العلماء إلى مؤسسات كبيرة تضم جيشاً من الفنيين والعلماء والإداريين، بحيث أن عدد الباحثين في شتى أنحاء العالم قد بلغ عام 1973 حوالي 2,279 مليون شخص، يوجد منهم 87,4% في الدول المتقدمة، حيث بلغ عدد الباحثين 1570 شخصاً لكل مليون نسمة في حين ان عددهم في الدول النامية يبلغ 307 في المليون.

وتقوم الدول المتقدمة بإنفاق مبالغ كبيرة على البحث العلمي، حيث تنفق (باستثناء الدول الاشتراكية والاتحاد السوفيتي) 98% من مجموع الإنفاق العالمي على البحث العلمي والتطوير في حين تنفق الدول النامية 2%. فعلى سبيل المثال فان الميزانية السنوية للبحث العلمي في اليابان لعام 1985 قد بلغت 24

مليار دولار ويشكل هـذا المبلـغ 2,6% مـن الـدخل القـومي وتـأتي اليابـان في المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة في الإنفاق على البحث العلمي.

لقد تحول العلم في عصرنا الحالي إلى أداة إنتاجية سواء بشكل مبـاشر، أو غـير مباشر، ففي دراسة أجريت حول تأثير البحث العلمي في زيـادة الإنتاجيـة في الـدول المتقدمة، تبين أنه للفترة من 1909 وحتى 1951 بلغت مساهمة رأس المـال 20% في حين أن مساهمة البحث العلمي والتكنولوجي بلغت 80%.

مقومات البحث العلمي:

- المفهوم

ان مفهوم البحـث العلمـي -مـاذا يـراد بالبحـث العلمـي، ومـا هـي قواعـده وضوابطه؟ وما هي الأغراض التي يتجه إليها، وما منزلته في الفكر الإنساني والمجتمـع البشري عامة، والمجتمع البشري الحديث عـلى وجـه خـاص؟ ان الأجوبـة عـن هـذه الأسئلة، نجدها في سير المئات من العلماء وقصص الاكتشافات والمخترعات.

فالعلم؛ هو المعرفة المنسقة والمصـنفة التـي تـم الوصـول إليهـا بإتبـاع قواعـد المنهج العلمي الصحيح مصاغة في قوانين عامة للظـواهر الفرديـة المتفرقـة "فـالمنهج يعني الطريق الموصل إلى الحقائق العلمية تبعاً لقواعد يستضيء بنورها الفكر".

والبحث العلمي؛ وسيلة أو طريق للوصول إلى المعرفة واكتشاف معلومـات أو علاقات جديدة وصولاً إلى حل للمشكلات التي تواجه الإنسان، بإتباع المنهج العلمي، الذي يتسم بالموضوعية والدقة والصحة، التي تسمح بالتأكـد مـن النتـائج وإمكانيـة التنبؤ.

فالعلم -في مفهومه الحديث- هو نتاج المجهود، المنظم، المتصل، الذي يبذله الإنسان لفهم نفسه وبيئته والسيطرة عليها. والبحث العلمي الأصيل، هو وسيلة لتوسيع نطاق هذا الفهم وتعميقه على وجه مقصود.

فارتقاء العلم الحديث، تم بمدِّ آفاق العين البشرية، أو الحواس البشرية وتعزيز قدرتها بوسائل شتى، مكنت الباحث من رؤية ما كانت رؤيته متعذرة فجعلتها هذه الوسائل مستطاعة، مباشرة أو بالواسطة، فنفذ الباحثون من ناحية إلى المتناهي في الصغر، ومن أخرى إلى المتناهي في البعد.

- الوسيلة

ان حاجة البحث العلمي إلى وسائل البحث المتعددة، في هذا العصر، الذي يضطرد فيه استنباط أدوات كالمعجزات تعينه على التثبت أو الاستطلاع، لهي أشد من حاجة سلفة في كل عصر مضى. هذه الوسائل التي لا غنى عنها للباحث في العصر الحديث، يندر أن تجتمع له، أو ييسر له استعمالها الا في مختبرات أو معامل مزودة بها، وهذه تقتضي أموالاً طائلة لتشييدها وفقاً لأصول هندسية قائمة على العلم والتجربة والاختبار، ولتزويدها بالآلات والمعدات اللازمة. ولكن الدولة على وجوب اضطلاعها بهذه المهمة، لا يمكن ان تنفرد بها، بل ينبغي ان ينال البحث العلمي سنداً قوياً من أهل الصناعة والزراعة ورجال المال والأعمال.

وقد أدرك هؤلاء، في كثير من الدول الغربية، بعد تجربة طويلة، ان تجويد الصنف وزيادة الإنتاج، وتقليل التكلفة، وابتكار المواد والأصناف الجديدة، هي أساس النجاح الاقتصادي، الفردي والقومي، وأيقنوا ان هذه الأمور لن تنقاد إليهم صاغرة عن يد من تلقاء نفسها فلا بد من الاستعانة عليها بالبحث العلمي - ومن هنا نرى ان الشركات الكبيرة قد أنشأت أقساماً

للأبحاث، تضاهي في سعتها، ومعداتها وعدد العلماء الباحثين فيها أكبر المعاهد الحكومية أو ما يقابلها من أعرق الجامعات.

- الباحث

فالباحث هو الركن الأساس، وليس في وسع شعب من الشعوب، يدرك ما للبحث العلمي، على تباين ألوانه وأغراضه وأساليبه، من قيمة في زيادة المعرفة والفهم، وتعزيز القدرة وفتح أبواب النمو القومي، ان يهمل الأساليب التي لا غنى عنها لإعداد الباحثين العلميين، أوفى إعداد وأتمه، وعلى النطاق الذي يحتاج إليه. فيذهب عملنا هباء ان لم نعدَّ لذلك العدة الأولى للبحث، وهي عقل الباحث الذي درب على الأسلوب وريض على مقتضياته الفكرية والخلقية، واستوى في قرارة نفسه شوق إلى كشف المجهول، فالباحث الذي هذه خلائقه، قادر على ان يمضي إلى غرض، وان عانى المشقة والعسر.

والقدرة على البحث، هي قدرة تربىّ، ومهد تربيتها هي المدارس في المرتبة الأولى ثم الجامعات ومعاهد البحوث وما إليها، ان البحث العلمي - هو تثمير بعيد المدى للمال والوقت والمواهب جميعاً. وحسب الباحث ان يكشف شيئاً جديداً واحداً في حياته وان طالت، أو حسبه ان يطلع من الملتفين حوله باحثاً ممتازاً واحداً، حتى يرد على المجتمع، بل العالم كله، ما يصنعه له، إضعافا مضاعفة.

على ان العلماء والباحثين العلميين يعجزون عن النهوض بالتبعات الواقعة على كواهلهم، سواء إلى توسيع نطاق الفهم قصدوا، ام إلى توسيع نطاق النفع، ان لم توفر لهم البيئة العلمية المؤاتية، في الجامعات وأقسامها العلمية ومختبراتها، أو المعاهد الرسمية والخاصة، المزودة بالقدر الوافي من معدات البحوث وأجهزتها.

وان الباحث العلمي الأصيل لا يطلب من الحياة سوى أشياء قليلة، طمأنينة على الحياة، حياته وحياة عائلته، ووقتاً كافيا للبحث لا ترهقه أعباء تبعثر الوقت والجهد، وحرية في البحث تمكنه من الانطلاق وراء عبقريته ومعمل أبحاث تتوافر فيه الأدوات اللازمة للبحث، وأعوانا متخفرين أخذهم الشوق إلى المجهول.

أثر العلم في المجتمع الحديث:

ليس بين الخصائص التي يتصف بها هذا العصر ما هو أشمل وأفعل من خاصيته السيطرة التي حققها العلم وصنعه ووليدة العلم الصناعي (التكنولوجيا) على المجتمع الحديث. وقد كان من عواقب هذه السيطرة منافع بيِّنة لا تكاد تحصى، أفاض فيها العلماء والكتاب العلميون وعلماء الاجتماع على السواء. ومنها منافع خافية وان كانت لا تقل أثراً عميقاً وشأناً عظيماً عن المنافع البيِّنة. ومنها مضار ومخاطر تلابس الكشوف العلمية، ولكن سببها ليس لان الكشوف بحد ذاتها ضارة، بل لان استعمالها على وجه ما، قد يفضي إلى ضرر بالغ. ذلك بأن أثر العلم في حياة الناس، ينبع من ثلاثة مصادر رئيسية:

أولها- الانتفاع بالفوائد التطبيقية للعلوم.

الثاني- الأسلوب أو المنهج العلمي في التفكير والبحث، وهو الذي بنيت عليه، ونجمت عنه، جميع الاكتشافات والمخترعات.

الثالث- فيرجع إلى الحقيقة العلمية، وان للعلم قيمة خلقية، ودولية. فالحقيقة العلمية، ابداً بنت البحث الذي لا ينأى ولا يستكين. اما الحقيقة الخلقية، فهي الفضائل الاجتماعية التي تقتضيها سلامة المجتمع وتقدمه سواء. والقيمة الدولية (الإنسانية)، فهي تعدو الفوارق بين الشعوب والأجناس والحدود الجغرافية والسياسية. فالحقائق

والنظريات العلمية، تنشر -أو ينبغي ان تنشر- في جميع الأقطار على السواء.

وتنتقد على أساس واحد لا غير، هو دقتها وقدرتها على تفسير الظواهر الطبيعية في زمن ما.

واقع البحث العلمي العربي وأزمة المؤسسات العلمية والأكاديمية العربية

كانت الأمة العربية في عصور ازدهارها... قد أعطت اهتماماً وتشجيعاً ودعماً للبحث العلمي ورعت العاملين فيه... وتلازم غياب شمس حضارة العرب مع ضعف الاهتمام بالبحث العلمي بل انعدامه في أغلب أقطار الأمة. ورغم حصول أقطار الوطن العربي على استقلالها، بعد الحرب العالمية الثانية، الا أنها ظلت تعاني التشتت والتخلف العلمي والاقتصادي والفكري والسياسي مما ساعد، ولا يزال يساعد، على ضعف التعاون والتنسيق بينها في مجالات عديدة أهمها العلم والتقانة. وبالرغم من ذلك فقد بدأ الاهتمام يزداد بالبحث العلمي بدرجات تختلف من قطر لآخر، لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية، في محاولة للإنتقال بالأمة العربية إلى موقعها الحضاري الذي يجب ان تحتله بين امم العالم. وقد بدأت هذه المحاولات ببناء المدارس والمعاهد والجامعات، ومراكز البحوث، الا انها لا تزال دون الحد الأدنى من النضوج ومن مستلزمات بناء مجتمع متطور علمياً وتقنياً.

وأما النشر العلمي العربي فهو الآخر ضعيف جداً، وحتى ما ينشر من بحوث علمية على مستوى الوطن العربي لم يلقى الطريق الصحيح للإفادة منه في مجال التطبيق، ان التخطيط للبحث والإفادة منه في مجال التطبيق مفقود في أغلب الأحيان.

ان قبول مبدأ استيراد نمط التنمية من الدول المتقدمة يعني تقليص حجم دور أجهزة البحث العلمي العربية وجعله هامشياً وذي مردود قليل بالنسبة

لكلفته. والواقع ان الدافع إلى المشاريع الجاهزة (المفتاح باليد) في الدول العربية قوي جدا، ولا يكاد يوجد أي تفاعل أو اتصال بين أنشطة التنمية والمؤسسات العلمية، لذا نجد ان أجهزة البحث العلمي في الدول العربية قاطبة تعاني؛ التحجيم والعزلة وعدم وجود دور فعال لها في التنمية القومية... ضعف الطلب على نتاج البحث العلمي العربي... الهروب إلى معالجة موضوعات غير أساسية... ويضاف إلى ذلك الموقف الفكري العربي العام، والذي يتميز بغياب المنهج العلمي في تناول أمور الحياة وقلة عدد الأجهزة البحثية المستقل منها وغير المستقل.

ان مراكز البحث العلمي والتقني أصبحت تؤسس خارج إطار الجامعات وبالقرب من حاجات المجتمع مباشرة الا ان دور الجامعات لا يزال مهماً في مجال البحث العلمي، وان الجامعات الجيدة السمعة هي تلك التي تزخر بمختبراتها البحثية وما تنشره من بحوث علمية وتقنية على المستوى العالمي وما يتوافر في ملاكها من علماء باحثين مشهورين. وكما هو معلوم فإن قدرات الجامعات البحثية محددة بالآتي:

1- نوعية وكمية ملاكها العلمي المقتدر على البحث والمتابعة.
2- وفرة أجهزة البحث العلمي والتقني والقدرة على ادامتها.
3- التخصيصات المادية المجزية للبحث العلمي والتقني.
4- المناخ العلمي الجيد للباحث والحرية الأكاديمية.
5- عدد ساعات التدريس الملقاة على عاتق عضو هيئة التدريس.
6- الفرص المتاحة لملاكها العلمي في التطور من خلال حضور المؤتمرات العلمية والحلقات الدراسية والدورات العلميّة المنشطة.
7- التقويم السليم لجهود الباحث بما يعود عليه من منفعة مادية ومعنوية تبعث فيه روح المثابرة والإبداع.

هذه باختصار أهم العوامـل التـي تـؤثر في النشـاط البحثـي للجامعـة، وعنـد استعراضنا لواقع الجامعات العربية، نجـد العوامـل أعـلاه غـير متـوفرة وقـد يتـوافر بعضها بنسبة محدودة.

إلا انه يلاحظ تركيز في الآونة الأخيرة على أهمية التخطيط العلمي في مجال البحث والدراسة، حيث أنشئت مؤسسات علمية أخذت على عاتقها هذه المسؤولية. كما ان الجامعات نفسها تهتم بدرجة معينة بعملية البرمجة في مجالات البحث العلمي والتقني، ومع وجود هذه الصحوة العلمية فإن معوقات العمل البحثي سواء في الجامعات أو في مراكز البحث العلمي لا زالت قائمة ومؤثرة في الإنتاج العلمي، مما يتطلب أخذ الآتي بنظر الاعتبار:

1- الحاجة إلى وضع استراتيجية للبحث العلمي في الوطن العربي.
2- التأكيد على أهمية الكفاءات العلمية بين الباحثين في مراكز البحـث العلمـي في أقطار الوطن العربي سواء أكانت هذه المراكز بحثية مستقلة أو جامعات.
3- وضع صيغة للاستفادة من العلماء العرب في المهجر.
4- وضع صيغة للاستفادة من المراكز الدولية المتقدمة في البحوث ذات الأهمية للمنطقة والإفادة من تجارب بعض مراكز البحث العلمي في بعـض الأقطـار العربية في هذا المجال.
5- الاهتمام بالتعليم العالي والدراسـات العليـا باعتبارهـا ركيـزة البنـاء العلمـي والتقني.

أقامت بلدان عربية عدة مراكز للبحث العلمي، فماذا أنتجت مقارنة بما تـوفر لها من قدرات وبما كان مطلوباً منها؟ هل ترجع ضآلة إنتاج هذه المراكز إلى:

- تحول العلماء المسؤولين إلى إداريين بيروقراطيين تشغلهم "لعبة السلطة" والاسترضاء وحب الظهور عن مهماتهم البحثية الأساسية؟

- غياب "القضية" والرؤية الواضحة التي تحدد الأهداف ووجهة توظيف الأموال والطاقات باتجاه معين؟

- قصور أساليب البحث؟ ضعف التحضير والتهيئة؟ ضعف منهاج التخطيط للبحث العلمي؟

- بقاء "النزعة" الفردية في وقت ولّى فيه العالِم الفرد الذي يغير العلم باكتشافاته وحده؟

هل البحث العلمي أكبر من طاقاتنا فعلاً؟ بل، هناك منفذ وهو يكمن في البحث العلمي ذاته؛ بحث علمي وطني له جذوره الحقيقية، يكون "العين التي بها نرى والعقل الذي به نفكر".

5

الفصل الخامس

مفهوم النظرية العربية للتربية

الفصل الخامس

مفهوم النظرية العربية للتربية

تمثل النظرية خلاصة لمبادئ مستمدة من شتى مصادر المعرفة، أهمها: التجربة لكل أمة، من هنا فإن كل أمة تصوغ نظريتها بوحي من واقعها واستيعاب تراثها الروحي وحاجاتها، لذا فالنظرية ليست بحثاً أكاديمياً مجرداً متحرراً عن الأفكار السابقة. ومن الخطأ الأخذ بالنظريات على أنها مطلقة، وصالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان.

إن النظرية بناء فكري شامل متناسق يحتوي على مجموعة إجابات عن قضايا الحياة الكبرى والصغرى كما يحتوي على تصورات عملية لتطبيق هذه الإجابات[1].

وبناء الدولة -أية دولة- في أي عصر- يتطلب مستلزمات وضوابط وعوامل لتنفيذ تلك العملية العملاقة، لأن البناء يعني التغيير الجذري.. إذ ان كيان أية دولة يقوم أساساً على الأركان الأساسية المعروفة لها، وهي الأرض والشعب والسيادة والنظام.. إذ أن لكل دولة فلسفة في الحياة (أي فلسفة العلاقات والتوجهات التي تحكم وتنظم العلاقات والصلات بين هذه العناصر الأساسية داخل وخارج حدود الوطن)[2].

---

(1) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، 1987م.

(2) د. الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، دار الثقافة العربية، بغداد، 1978م.

فالأرض في أي وطن وفي أي عصر وفي أي نظام، وفي حالات التقـدم والتخلـف، هي الأرض نفسها، والشعب هو الشعب نفسه.. يبقى العنصر المهـم وهـو القيـادة التي تخطط وتنظم وتقود وترسم التوجهات والمشروعات وتشرف على تنفيذها، فإن كانت تلك القيادة بمستوى طموح الشعب في بناء الدولـة بنـاءً حـديثاً يـتلائم وروح العصر والمستقبل ومتطلباتهما[1].

إن النظرية في حقيقتها تعين على تفسـير ظـاهرة التنميـة التربويـة في سـياقها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

وينبغي ان تخضع النظرية لشروط معينة، إذ لا بد أن تكون متطورة من أجل تحقيق فائدتها. وان تخضع للتجربة الواقعية، وان تحتوي عـلى منطـق داخـلي. وان تكون غير متناقضة[2].

ان أهم ما يميز الوطن العربي كونه مهد الديانات السـماوية. ومـا حملتـه مـن قيم روحية نشأت فيه، فقد كانت الأمم التي تعيش من حول الجزيرة العربية قبيـل الإسلام. فقد كان يتصدر العالم آنذاك دولتان اثنتان، تتقاسمان العـالم المتمـدن. هـما فارس والروم، ويأتي من ورائهما اليونان والهند.

أما فارس فقد كانت حقلاً لوساوس دينية فلسفية متصارعة مختلفة، كان فيها الزرادشتية التي اعتنقها ذوو السلطة الحـاكمون، وكـان مـن فلسـفتها تفضـيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته، حتى أن يزدجـرد الثـاني الـذي حكـم في أواسـط القـرن الخامس الميلادي تزوج بابنته. هذا إلى جانب انحرافات خلقية مشينة مختلفة.

---

(1) د. نزار عبد اللطيف الحديثي، الأمة والدولة في السياسة العربية في القرن الأول الهجري، دار الثقافة العربية، بغداد، 1979م.

(2) مصدر سابق، ص89.

وكان فيها (المزدكية) التي قامت كما يقول الإمام الشهرستاني على فلسفة أخرى هي حلّ النساء وإباحة الأموال وجعل النَّاس شراكة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلإ، وقد حظيت هذه الدعوة باستجابة عظيمة لدى أصحاب الرعونات والأهواء وصادفت لديهم قبولاً عظيماً[1].

أما الرومان، فقد كانت تسيطر عليها الروح الاستعمارية، وكانت منهمكة في خلاف ديني بينها من جهة وبين نصارى الشام ومصر من جهة أخرى، وكانت تعتمد على قوتها العسكرية وطموحها الاستعماري في مغامرة عجيبة من اجل تطويرها للمسيحية والتلاعب بها حسبما توصي به مطامعها وأهواؤها المستشرقية.

ولم تكن هذه الدولة في الوقت نفسه أقل انحلالاً من دولة الفرس، فقد كانت تسودها حياة التبذل والانحطاط والظلم الاقتصادي من جراء كثرة الاتاوات، ومضاعفة الضرائب[2].

أما اليونان فقد كانت غارقة في هوسات من خرافتها وأساطيرها الكلامية التي منيت بها دون أن ترقى منها إلى ثمرة أو نتيجة مفيدة[3].

وأما الهند، فقد ساهمت مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الأخلاقي والاجتماعي.

---

(1) سامر محي الدين، الإشاعة اداة حرب على الإسلام والمسلمين، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2006م. ص82.

(2) د. عبد المنعم فؤاد، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، مكتبة العبيكان، الرياض، 2001م.

(3) سامر محي الدين، الإشاعة اداة حرب على الاسلام والمسلمين، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2006م.

أما عن الجزيرة العربية فقد كانت هادئة، بعيدة بل منعزلة عن مظاهر هذه الاضطرابات كلها. فلم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون في خلق وسائل الانحلال وفلسفة مظاهر الإباحية والانحطاط الخلقي ووضعها في قوالب من الدين، ولم يكن لديهم من الطغيان العسكري الروماني ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أي رقعة من حولهم، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليوناني ما يُصبحون به فريسة للأساطير والخرافات[1].

ان هذه الحقيقة جعلت من التربية العربية حاملة مسؤوليات في غاية الأهمية منها، التمسك بالقيم الروحية. تكوين الشخصية العربية، دعم التفاعل الحي بين المواطن وأحوال مجتمعه المتطور، والتفاعل مع المتغيرات المختلفة في العالم المحيط به.

ولعل من ابرز هذه القيم والمبادئ الروحية الخالدة:

الحرية والمساواة والتسامح والعدالة والإيمان بحرية الرأي والاعتقاد والعمل، ورفض التناقض والتناحر والاستغلال[2].

لم يجد الإنسان كرامته وسعادته كما وجدها في الحضارة الإسلامية، حضارة الإنسان بحق، فليست حضارة الشعب المختار، ولا حضارة الإنسان الإله، ولا حضارة الكهنة، ولا حضارة الرعاع، ولا حضارة الإنسان الأبيض، ولا حضارة الدماء الزرقاء، ولقد عاشت البشرية قبل الحضارة الإسلامية في مأساة معقدة، فلم تعرف معنى الكرامة

---

(1) د. أمين إبراهيم عوض، حال الأمم قبل الإسلام، دار النسيم للنشر والتوزيع، دمشق، 1998م.

(2) د. وهيب سمعان، وسعد منير مرسي، المدخل في التربية المقارنة، دار ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، 1973م.

الإنسانية، ولا معنى المساواة. وجاء الإسلام لينقذ الإنسانية من قيود الطبقية والتمييز العنصري[1].

إن الدخول إلى التربية من زاوية أصولها يعني تخطي عالم الجزيئات والتعامل مع المبادئ والقيم التي تحكم العمل التربوي. فنحن لا نرى التربية من زاوية المدرسة، ومن زاوية طرق التدريس والمنهج، وانما نراها بوصفها قوة بين قوى مختلفة في كيان اكبر هو المجتمع بثقافته[2].

والتربية بهذا الموقع تتأثر بالقوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي الوقت نفسه تمارس تأثيراً على هذه القوى بشكل أو بآخر.

فمنذ ظهور الحياة على وجه الأرض والناس يعيشون في جماعات، ولم يرد في أي مرجع ان الإنسان كان يعيش بمفرده منعزلاً عن باقي الناس، وهكذا أظهرت النظرة الاجتماعية وجاء علم الاجتماع وتطور مع الأيام واصبح له فروع ثم ارتبط علم الاجتماع بعلم التربية، وظهر ما يُسمى بعلم الاجتماع التربوي.

أما عن دور السياسة، فقد شهدت العصور الحديثة نهضة سياسية وتحررت كثير من الأمم والدول وتأثرت بذلك العملية التربوية وجاءت الأفكار التحررية السياسية والتي كان لها اثر كبير على التربية[3].

---

(1) د. محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، الدوحة.

(2) د. محمد ايمن اسماعيل، النظرية العربية للتربية، دار النهضة التنموية للنشر والتوزيع، بغداد، 1989م، ص114.

(3) فهيجل يرى مثلاً أن هدف التربية هو غرس ارادة الدولة في ارادة الفرد وتبنت هذه الاراء عدة دول منها المانيا، وايطاليا ثم روسيا، وجاءت افكار جون ديوي التي تبحث في تحقيق المساواة وازالة الفروق الفردية والتحرر من القيود والقيام بالعمل الايجابي لصالح الجماعة واعطاء الحرية للأفراد للمشاركة في الشؤون العامة وذلك عن طريق الاقتراع العام في شؤون الدولة.

اما الاقتصاد، فالمناطق التي يقوم اقتصادها القومي على الزراعة تتأثر تربية أبنائها وقيمهم ومفاهيمهم بالنظام السائد في منطقتهم، اما المناطق التي تعتمد في حياتها على نظام اقتصادي تجاري وصناعي معين، سواء كان رأسمالياً[1] أو اشتراكياً[2]، فإن التربية تتأثر في اي منها بما يتناسب والنظام الاقتصادي الموجود[3].

ان النظام الاقتصادي أو النظرية الاقتصادية التي يسير عليها المجتمع، هي التي تحدد سير ذلك المجتمع، وطرق حياته وبالتالي تربية اجياله.

---

(1) الرأسمالية: هو النظام الإقتصادي الذي يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثروة، ويطلق المجال لحريات الأفراد والمشروعات الخاصة، ويعتمد الربح حافزاً أساسياً على التقدم الإقتصادي والاجتماعي، واعتبار أن المصلحة الشخصية هي الباعث الطبيعي والمحرك الأول لكل الجهود الإقتصادية بحيث أنه إذا إنعدم هذا الحافز إنعدمت الطاقة التي تبث الحياة في النشاط الإقتصادي بشكل عام.

إن تحليل طبيعة الرأسمالية وتأثيرها يتطلب دراستها من الناحية السياسية إضافة إلى النواحي القانونية والتقنية والإقتصادية وتعتبر الرأسمالية نظام إقتصادي جيد بشرط ان تتدخل الدولة لحماية الطبقة العامة بتشريعات خاصة، واعتراف الدولة بالنقابات، وحق العمال في الإضراب بهدف تحسين ظروف العمل، وإقرار الدولة حداً أدنى للأجور، وإقامة نظاماً للضمان الاجتماعي ضد البطالة والعجز والشيخوخة، والعمل على تحسين توزيع الدخل، وإخضاع المشاريع الكبيرة للرقابة، واتباع سياسة التخطيط والتوجيه الإقتصادي.

(2) الإشتراكية: الإشتراكية من وجهة نظر إقتصادية يمكن تعريفها على أنها إشتراك جميع فئات المجتمع في وسائل الإنتاج المحلي وهي -الأرض- الثروة، رأس المال والقضاء على الرأسمالية ونظام الإرث وإلغاء الملكية الفردية وتأميم الخدمات العامة والمؤسسات الإقتصادية المالية.كما تدعو الإشتراكية إلى توزيع الأعمال والحقوق والثروات توزيعاً متكافئاً بناءاً على نظام إشتراكي معين.

(3) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية) ط5، بدون دار نشر، عمان 1983.

ان النظرية التربوية تعبر تعبيراً صادقاً ومشروعاً عن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي تشكلت تحت ظلها. وان خصائص النظرية التربوية تعكس خصوصية المجتمع الذي تتلاءم معه[1].

ان العمل التربوي يقوم على فرضيات ومسلمات متكونة من دراسة العلاقة بين العمل التربوي وميادين العلوم المختلفة، وبيان الأثر الذي تتركه العوامل والتطورات الاجتماعية والفكرية المختلفة في صياغة الاطار النظري العام للعمل التربوي[2].

ان العطاء المتبادل بين المجتمع والتربية معروف لدينا، فالمجتمع يعطي التربية، عندما تستمد التربية مادتها من التراث الثقافي المتراكم، لاجيال المجتمع المتعاقبة، ومما ينبغي للتربية أن تنشئ الجيل الجديد عليه، سواء في العائلة أو في المدرسة، أو في أجهزة الإعلام أو في الاحزاب أو في المؤسسات الاجتماعية والدينية... الخ[3].

فالتربية هي الوسيلة الوحيدة لاستقرار المجتمع من حيث انها تنقل تراثه من جيل إلى جيل وبذلك تؤدي إلى استمراره بقيمه ونظمه الثابته وبقاء الاوضاع الاجتماعية فيه على حالها[4].

---

(1) د. محمد عبد السلام احمد، القياس النفسي والتربوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960م.

(2) د. محمد لبيب النجيحي، الأسس الاجتماعية للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، ط6، القاهرة، 1976م.

(3) د. محمد ايمن اسماعيل، النظرية العربية للتربية، دار النهضة التنموية للنشر والتوزيع، بغداد، 1989م.

(4) اختلف المربون على مر العصور في علاقة التربية بالمجتمع فرأى فريق منهم وعلى رأسهم (أرسطو) الفقرة السابقة.

ورأى فريق آخر وعلى رأسهم افلاطون أن التربية تعتبر وسيلة لإصلاح المجتمع وتحسينه وتقدمه وتطوره وان وظيفة التربية هي التي تستطيع أن ترفع من شأن المجتمع وليس هناك اصلاح حقيقي الا اذا قام على أساس من تنشئة الأجيال المقبلة[1].

على أن التربية وهي تستوحي مادتها من الوعاء الثقافي العام لمجتمعها، تضع عناصر الثقافة امامها، من لغة وعادات وقيم ومهارات وفنون وآلات وادوات وتبدأ بتحليلها وتبويبها، وتحديد أفضل وسائل اكسابها، في ضوء الملاءمة بين المرحلة العمرية، والحاجات المطلوبة. هذا فضلاً عن اعطاء المجتمع التربية ما تغطي به مدخلاتها من معلمين وتلاميذ وادوات وادارة ونظم ومناهج وأهداف ثم التمويل بالنفقات المادية وغير ذلك[2].

وللمجتمع أهمية كبيرة في العملية التربوية إذ في ضوء معرفة المجتمع ومكوناته ونظمه يمكن لرجال التربية رسم مخططاتهم ووضع سياستهم التربوية لأن هذه السياسة يجب أن تتمشى مع ظروف وامكانات وحاجات المجتمع وفي ضوء ثقافته، وكي تكون الخطة التربوية مناسبة للجماعة وللنظام السائد في المجتمع فإن دراسة أي مجتمع أمر واجب قبل التخطيط التعليمي والتربوي ووضع الخطط لابنائه واجياله اللاحقة[3].

وان التربية تعطي من خلال ما يأتي:

---

(1) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية)، ط5، بدون دار نشر، عمان، 1983م.

(2) د. لطفي بركات أحمد، التربية ومشكلات المجتمع، دار النهضة العربية، القاهرة، 1978م.

(3) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل الى التربية)، ط5، بدون دار نشر، 1983م.

أولاً: تطور ثقافة المجتمع:

ان بناء الجيل الجديد، من حيث المبدأ، ينشأون على لغة الآباء والأمهات، ويتعلمون عاداتهم ومهاراتهم، ويستقون قيمهم من الوعاء الثقافي العام بكل ما فيه من جيد ورديئ حتى تتولاهم المدرسة وغيرها من المؤسسات، فتقدم لهم التراث الثقافي منقى وتطرحه امامهم بكتب ومناهج ونشاطات وافكار وخبرات، يناقشونها ويتفاعلون معها[1].

والعملية التربوية بالتالي تختلف باختلاف تكوين المجتمعات وأنواعها وأصولها وعناصرها، فلكل مجتمع نظمه وقيمه وثقافته الخاصة به، هذه الثقافة تنعكس على أفراد المجتمع بواسطة العملية التربوية، فابن القرية تختلف تربيته عن ابن المدينة وابن الصحراء لا يتربى كابن الحضر وهكذا... ويتضح من ذلك أن دراسة المجتمع بأنواعه ومكوناته وعناصرها المختلفة شئ هام وأساس في العملية التربوية والتخطيط التربوي والمناهج التربوية وتقدم المجتمع بشكل عام[2]، وذلك حتى يتم لابناء الجيل الجديد التحرر من العادات والقيم والمفاهيم وأساليب السلوك غير الجيدة مع الحفاظ على الجيد منها، بما يجعلها متوافقة ومناسبة للتغيرات الحاضرة التي يعيشونها. ولما يمكن ان يحدث من تغيرات مستقبلية. ومن هنا تعطي التربية مجتمعها تطوراً وتحسيناً لثقافته[3].

---

(1) د. إلياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، دار الثقافة العربية، بغداد، 1978م.

(2) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية)، عمان، ط5، بدون دار نشر، 1983م.

(3) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، 1987م.

والتربوي الناجح ينبغي عليه معرفة المجتمع الذي يتعامل معه ويعـيش فيـه، ان يعرفه معرفة صادقة دون زيف، ان يعرف الناس والقوى التي تحركهم من تـراث ثقافي وأسلوب حياة، لأن أي محاولة لحل مشاكل المجتمع لا بد أن تقـوم عـلى فهـم ذلك المجتمع.

ثانياً: توفير القوى البشرية في ضوء حاجة المجتمع:

يتشكل المجتمـع مـن انظمـة اقتصـادية ودينيـة وسياسـية وتربويـة وصـحية وقضائية واسرية وترفيهية. حيث يتكون كـل مجتمـع مـن المجتمعـات مـن عنـاصر أساسية تؤثر تأثيراً كلياً على حياة الجماعة التي تعيش فيه وتصبغهم بصـبغة معينـة وتشكلهم بشكل ما، وتخلق منهم جماعة لها كيان منفرد عن غيرهم من الجماعة[1].

والنظام التربوي عن طريق مؤسساته المختلفة، يتولى تكـوين مـا تحتـاج إليـه انظمة المجتمع من ملاكات بشرية.

ثالثاً: نشأة الالتزام أو الضبط الاجتماعي في الفرد:

ينظر إلى التربية على انها الوسيلة التي تجسد غيرها من وسائل الضبط الاجتماعي، في المجتمع، وفي الشخصية الإنسانية ابتداءً من عمليات التنشئة الاجتماعية، واستمراراً لعمليات التربية المدرسية، وبعمليات التفاعل والتكيف الاجتماعيين من خلال خبرات الحياة الاجتماعية المستمرة[2].

(1) د. سلام علي الجبوري، أهمية التربيـة في تجربـة التنميـة، وزارة التعلـيم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة الموصل، الموصل، 1987م.

(2) د. سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، 1982م.

فعندما يولد الطفل يبدأ عملية التكيف مع مجتمعه الجديد -بعد الولادة- وما أن يشب ويكبر حتى يبدأ في اكتساب العادات والتقاليد والقيم والنظم والمفاهيم والأنماط السلوكية وكل ما يرضى عنه الجماعة، فتتكون بالتالي شخصيته الفردية والاجتماعية ومع ان الفرد يكتسب ثقافة الجماعة الا أنه لا يمكن القول وعلى هذا القياس أن كل الأفراد يصبحون وكأنهم نسخة مكررة أو اشخاص طبق الأصل متماثلون لأن هناك إلى جانب الاكتساب الاجتماعي فروقاً فردية تخص كل فرد على حده وفروقاً في الذكاء والاستعدادات والنمو وفروقاً بيولوجية عضوية وفروقاً أخرى وراثية وفروقاً بيئية[1].

وفي ضوء ما سبق يتضح لنا ان التربية أولاً وقبل كل شئ نظام اجتماعي، تتكون بنيته من نفس العناصر التي تتكون منها النظم الاجتماعية الأخرى وهي بوصفها عملية تستمد أسسها ومناهجها وأهدافها من المجتمع وثقافته[2].

هذا وان أولى العلاقات الإنسانية التي يكتسبها الطفل تكون مع الأعضاء المكونين لاسرته ثم مع الاعضاء الذين تكون له صلة مباشرة معهم كالاقارب وفي هذه المرحلة من العلاقات الإنسانية يمارس السلطة والحماية والحب وعندما ينمو الطفل وتتسع دائرة علاقاته مع دائرة إنسانية اوسع كأطفال الحي والمجاورين فيتعلم العطاء ونكران الذات، ثم تبقى الدائرة

---

(1) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية)، عمان، ط5، بدون دار نشر، 1983م.

(2) د. عبد الغني النوري، نحو فلسفة عربية للتربية، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1967م.

تتسع حتى يصبح إنساناً يعيش ويتعامل مع المجتمع فيصبح أكثر اجتماعية وتطبيعاً لسلوك الجماعة[1].

فإن عمليات التنشئة الاجتماعيـة، التـي تتولاهـا التربيـة، انمـا تحقـق عضـوية الجيل الجديـد في المجتمـع عـن طريـق تعليمـه: لغـة الجماعـة وفكرهـا وتقاليـدها وعاداتها وأعرافها وقيمها ومهاراتها. لأن الثقافة هي الوعاء الذي تستقي منه التربيـة أصولها ومناهجها وأهدافها المختلفة[2].

وان النظرية الاجتماعية للمجتمع العربي أمر يتعلق بوحدته وحريته وعدالتـه الاجتماعية. وبقدر ما يمكن تعميق هذه النظرية سيكون بالإمكان في الوقـت نفسـه تعميق النظرية التربوية[3].

---

(1) د. لطفي بركات أحمد، التربية ومشكلات المجتمع، دار النهضة العربية، القاهرة، 1978م.

(2) د. سلام علي الجبوري، أهمية التربيـة في تجربـة التنميـة، وزارة التعلـيم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة الموصل، الموصل، 1987م.

(3) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، 1987م.

6

الفصل السادس

مصادر النظرية العربية للتربية

الفصل السادس

مصادر النظرية العربية للتربية

لقد تشكلت مصادر النظرية العربية للتربية، ومن هذه المصادر:

1. التراث القومي والبعد التاريخي للأمة العربية :

وتجربتها ولا سيما الإسلام الذي جمع في ماضي العرب اعمق تجربة روحية وثورية فكرية واجتماعية وسياسية. فالعرب قوم محمد صلى الله عليه وسلم وحملة رسالته وماتزال لغتهم مستودع كتابه وسنته.

وهم قوم لم تكن لهم دولة ولاحضارة، وكانوا يعيشون على أطلال ذكريات تربطهم بإبراهيم واسماعيل عليهما السلام، وهم نسب وصهر لهذين النبيين، جمعوا في أنفسهم وفطرتهم بين نقاء الأصل وكرم المعدن وعظمة الاستعداد من جهة.

وبين ضياع الهدف وجاهلية السلوك والاعتقاد والتشريع من جهة أخرى. وكانوا يتحركون بين هذين النقيضين. فتارة يشهدهم كرم الأصل ونقاء الفطرة وطوراً يقعون في حمأة الجاهلية وأرجاسها، إلى أن جاء الإسلام فخلصهم من أرجاس الجاهلية، وكشف عن استعداداتهم الكامنة ومعادنهم الكريمة[1].

---

(1) د. إبراهيم زيد الكيلاني وآخرون، دارسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط3، 1992م.

وقد كان العرب أمة أميَّة قل فيهم الحاسب والكاتب، وكانوا بعدين عن الحضارات العريقة في فارس والروم ومصر، فكانوا كالمادة التي لم تتناولها يدا الصانع، فحافظت على أصلها ومعدنها، فالحضارة وإن كانت علماً واستنارة وقوة تنظيم، إلا أنها لا تخلو من تلوث وتكاثر للالوان والأحوال يغيب معها اللون الأصيل والحال الأول.

والحضارة عطاء لا يخلو من استهلاك وتزيف وإنهاك، ولا سيما كلَّما أمضت الشعوب في الحضارة غير الربانية، فإنها تجد نفسها أمام ركام من الأنماط والعادات، وتتوجه نحو الشهوات والملذات، ويقل في ابنائها عنصر الإقدام والجرأة والتضحية.

إن العرب لم يُصابوا بعيوب الحضارة، بل كانوا في جزيرتهم كالأرض البكر التي لم يجر عليها المحراث، ولم تزرع، حتَّى جاء أوان الحرث والزرع، فكان الزارع نبياً رسولاً، علمه ربه كيف يحرث وكيف يزرع[1]

لقد التقى الإسلام بعقيدته الواضحة وشريعته الكامله مع العرب، الذين لم يخوضوا تجارب حضارية معقدة قبل ذلك، فكان اللقاء لقاءً الزرع طاقات تلك الأمة الوليدة الجديدة.

وبالرغم مما كان عليه العرب من فساد في التصوّر والخلق إلا أنهم كانوا يمتازون من بين سائر الأمم بصفات تؤهلهم لحمل هذه الرسالة العظيمة، فقد كانوا مشهورين بالصدق، لا يعرفون الكذب حتى على خصومهم وأعدائهم. وكانوا يعتبرون الكذب معرة وعيباً.

---

(1) سامر محي الدين أمين، الإشاعة أداة حرب على الإسلام والمسلمين، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2006م.

وكانوا مشهورين بنصرة الجار وإغاثة اللهفان، وقد بلغ نصرتهم للجار أن وقعت فيهم حرب البسوس، واستمرت سنين طويلة، فلما أسلموا وآمنوا كانوا خير جار لمن استجار بهم، فهم يضحون بالمال والنفس، لايعرفون شح البخل، ولا هلع الخوف، ولايحسبون للموت حساباً، ولايخشون الفقر. وكان كرمهم وتضحيتهم مما يضرب به المثل، فكيف إذا آمنوا بعقيدة تملأ قلوبهم بحبها والتسليم لها، ثم تدعوهم إلى نصرتها والبذل في سبيلها[1].

ولقد كانت اكثر الرذائل في حياتهم الاجتماعية فضائل تطرفوا فيها، ولم يتوسطوا، وبالغوا ولم يعتدلوا، فالإسراف تطرف في الكرم، والتهور تطرف في الشجاعة، والظُلم الذي هو تجاوز كل حدود الإعتدال.

ثم همّ إلى جانب ذلك أهل الطاعة لزعائمهم وشيوخ قبائلهم، أشدّ عداء على غيرهم، رحماء بينهم. فلما جاء الإسلام أعادهم إلى الوسطية والإعتدال ونقلهم إلى مركز الفضائل، فسخّروا فضائلهم للحق وأهل الحق. وأحبوا نبيهم صلى الله عليه وسلم أكثر من أبنائهم، ووجهوا أنفسهم إلى الطاعة والعبادة، فكانوا أكثر الأمم تبعية وارتباطاً بالقيم الجديدة[2].

أمّا جاهليتهم فلم تكن جاهلية الكتاب والحساب، وإن قد قلّ فيهم الكاتب والحاسب، بل كانت جاهلية العقيدة والتصور، فهم مشركون بالله، إذ لم يكن حظهم من الدين سوى أصنام يخترعونها، ثم سرعان ما يستبدلونها. ويجعلون لها من الهيبة والسلطان ما يشهد على فساد عقولهم

---

(1) د. إبراهيم زيد الكيلاني وآخرون، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1992م.

(2) سامر محي الدين أمين، الإشاعة أداة حرب على الإسلام والمسلمين، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2006م.

وضياع أحلامهم. ولم يكلفوا أنفسهم أن يجعلوا آلهتهم من مادة معقدة، أو يبذلوا عناءً وجهداً في اختيارها.

أما عن النقلة النوعية التي أحدثها الإسلام في العرب، لقد جاء الإسلام فقلع العرب من جاهليتهم وأخذ بأيديهم إلى الهداية، فهذب طباعهم، ونقّى فطرتهم، وحملهم أسمى المقاصد وأعظم الأهداف وأبعد الغايات، فصان مادتهم من الضياع تحت أنواع الجاهلية، وخلّصهم من الشوائب التي غيبت أصلهم وضيعت فطرتهم[1].

أما عن النقلة النوعية في حياة العرب فهي على النحو التالي:

1. نقل الإسلام العرب من مرحلة الضلال والحيرة إلى مرحلة المثل الأعلى، وأصبح الإسلام فلسفة وجودهم الفكري والنفسي وبيئتهم الثقافية والمعنوية، ولم يكن الإسلام بالنسبة لهم كالدين عند غيرهم مجرد معتقدات خاصة بالإله والشعائر، ولكنه كان نظاماً عاماً خضعوا لأحكامهِ، ونظموا حياتهم على أساسه، وصاغوا منهُ وجودهم الكلي في العقل والشعور والوجدان وشؤون الحياة.
2. سلَّم الإسلام العرب القيادة الفكرية، داعين مبلغين، والقيادة السياسية حُماة حاكمين.
3. حال الإسلام بمفاهيمه ومبادئه دون ذوبان العرب في الحضارات الأخرى، حتى في أسوأ الأوضاع وعصور الأنحطاط.

---

(1) د. إبراهيم زيد الكيلاني وآخرون، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1992م.

4. نقل الإسلام العرب إلى الطور النهائي من أطوار الأمم، بأن حملهم المسؤولية العالمية، فنقلهم من مسؤولية القبيلة إلى مسؤولية العالم دفعةً واحدة، علماً بأن هذه النقلة تحتاج في الأحوال العادية إلى مئات السنين[1].

إن اعطاء نظرية التربية هوية قومية يجعل التراث العربي القومي يحتل مكان الصدارة في مصادرها.

ان بناء حاضر جدي ومزدهر، يستدعي الاهتمام بالماضي، دراسة واستشهاداً واعتزازاً بجوانبه المشرقة، لأن الحاضر والمستقبل المزدهر انما هما امتداد للماضي.

2. حركة التقدم العلمي في العالم:

إذا جاز لنا ان نصف هذا العصر، فإنه عصر العلم والمعرفة، والتفجر المعرفي، ومن أجل أن يسهم العرب في حضارة الإنسانية يجب ان يواكبوا حركة التطور العلمي[2].

3. حركة الثورة والتقدم في العالم:

ان الأمة العربية جزء من العالم الثالث وحركة الثورة العربية هي جزء من حركة الثورة والتقدم في العالم كله، يضاف إلى ذلك أن القومية العربية قومية إنسانية، لذا فإن الإنسان العربي الجديد الذي هو غاية

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، الموصل، 1987م.

التربية العربية يجب ان يكون ذا هوية قومية إنسانية، لذا فإن الإنسان العربي الجديد الذي هو غاية التربية العربية يجب ان يكون ذا هوية قومية وإنسانية ليتمكن من المساهمة في أداء الأمة العربية لرسالتها الإنسانية، وهذا يتطلب ان ندرس ونتفاعل مع تجارب الآخرين لا أن ننقل ونستنسخ عنهم.

7

الفصل السابع

الأسس الفلسفية للنظرية العربية للتربية

الفصل السابع

الأسس الفلسفية للنظرية العربية للتربية

لا يمكن تأسيس نظرية تربوية دون مرتكزات فلسفية تستند عليها. فهو يكشف عن انسحاب نظريات تربوية إلى الواجهة الخلفية للحياة وذلك لعدم جدارة مرتكزاتها الفلسفية، وعجزها عن مسايرة التحولات التي أصابت رحم الحياة، وظهور نظريات تربوية جديدة قامت على مرتكزات فلسفية شكلتها قوى جديدة أصبح بيدها محرك الحياة.

ويعرض لنا نظريات تربوية مؤسسه على مرتكزات فلسفية لأمم غالبة قامت بفرض هيمنتها على الشعوب المغلوبة بقوة السلاح، وأساليب الترغيب والترهيب وسلوك طريق التخريب في تراثها الروحي، وحرف بنيتها الفكرية عن مسارها الصحيح[1].

ويقدم لنا بالمقابل صوراً من نظريات تربوية مؤسسه على مرتكزات فلسفية لأمم وشعوب رفضت الهيمنة الاستعمارية، وبدأت بعد أن تمكنت من إنجاز استقلالها السياسي من مباشرة تجربة جديدة تهدف إلى إعادة بناء الحياة والمجتمع ومؤسساته والإنسان وكل مناهج وأساليب وأهداف تربيته.

---

(1) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل الموصل، 1987م.

إن أول فعل قامت به هو نثر المتراكم من غبار التخلف، وسارعت الخطى في كل مفاصل الحياة عبر تدشين منهجاً تربوياً عاماً توجهه مرتكزات فلسفية جديدة تترجم مشروع توحيد للأمة، البديل عن كل المناهج التي توطن حالة التمزق والفرقة، وتباشر فعل تجديد لمسارات التفكير والقيم والسلوك. والاندفاع باتجاه كل جهود أبنائها واستثمارها لاختصار الزمن وتحقيق ارتباطها بعجلة التقدم الحضاري[1].

إن الفلسفة تعمل على فهم الحقيقة وشرحها بأكثر الطرق شمولاً ونظاماً. وفلسفة التربية تنشد فهم التربية في مجموعها، معسرةً إياها بمفاهيم عامة توجه في تحديد وتفصيل الغايات التربوية وسياساتها. وفلسفة التربية بشكل عام تعتمد على فلسفة نظرية. لان معظم المشكلات التربوية الرئيسة التي في حقيقتها مشكلات فلسفية. ولا يمكن نقد المثل التربوية العليا، والسياسات التربوية.

ثم لا يمكن اقتراح مثل عليا أو سياسات، وفلسفات تربوية ما لم تؤخذ بنظر الاعتبار المشكلات الفلسفية كطبيعة الحياة الصالحة التي ينبغي أن تؤدي إليها التربية. وطبيعة الإنسان نفسه، لأن الإنسان هو الذي تقوم التربية بتربيته. وطبيعة المجتمع لأن التربية عملية اجتماعية، وكذلك طبيعة المجتمع لان التربية عملية اجتماعية، وكذلك طبيعة الحقيقة النهائية الي تنشد جميع فروع المعرفة سبر أغوارها[2].

---

(1) د. عبد الغني النوري، نحو فلسفة عربية للتربية، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.

(2) د. محمد حامد الأفندي، الإشراف التربوي، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، 1976م.

إن الفلسفة التربوية تتضمن تطبيق الفلسفة النظرية على مجال التربية، ثم إن فلسفة التربية شأنها شأن الفلسفة العامة: تأملية، وإرشادية، ونقدية وتحليلية:

1- تكون فلسفة التربية تأملية عندما تنشد وضع نظريات حول طبيعة الإنسان والمجتمع والعالم والإنسانية وتعمل على تقديم تعليل أو تفسير لها.

وتثير التربية في الحقيقة عدة مشكلات لا تستطيع حلها، وليس العلم بقادر على حلها أيضاً إذا قام كل منهما بذلك على انفراد، وذلك لأن المشكلات التي تظهر للتربية هي مجرد أمثلة على المسائل الخاصة بالفلسفة نفسها تتكرر باستمرار.

2- إن فلسفة التربية شأنها شأن الفلسفة العامة تتصف بصفة إرشادية وذلك من جهة أنها تحدد الغايات التي يجب على التربية تحقيقها. والوسائل العامة التي عليها استخدامها لنيل تلك الأهداف.

3- تأتي تحليلية ونقدية فلسفة التربية من حيث أنها تقوم بتحليل ونقد نظرياتها التأملية الإرشادية كما تقوم بتحليل النظريات المتعلقة بفروع المعرفة الأخرى.

إن النظريات التربوية تلجأ إلى الفلسفة وهي تبحث عن الحلول اللازمة للمشكلات التي تواجهها ومعروف لدينا أن النظرية التربوية نابعة من فلسفة تربوية تتضمن في ذاتها تطبيقاً للفلسفة النظرية العامة "التي يؤمن بها فرد أو جماعة أو مجتمع".

إن الفلسفة تتفرع إلى عدة فروع معرفية تشمل الميتافيزيقا[1] ونظرية المعرفة والأخلاق وعلم الجمال وعلم المنطق وأن "التربية تتأثر بكل ذلك إلى درجة كبيرة".

إن أي بناء فلسفي في أي مجتمع مرهون بالجماعات والطبقات القائمة فيهن يستمد الفلاسفة تصوراتهم من واقعة حيث يكون لتصوراتهم مدلول سياسي، ويكون لتلك التصورات علاقة بمصالح الجماعات والطبقات، وما ينشأ بينها من نزاع بشكل أو بآخر[2].

إن الإطار الفلسفي لأية نظرية تربوية يتحدد بظروف العصر الذي تشكل فيه هذا الإطار، وضغط المشكلات الاجتماعية والموقف من القوى التي تفعل أو تعطل حركة التحولات الاجتماعية.

ويعتمد الإطار الفلسفي على درجة النمو الثقافي والمتراكم من المعارف واتجاهات العلم وطبيعة المناهج السائدة ونقطة الوصل أو القطع التي أقامها مع الأنظمة الفلسفية السابقة والمعاصرة له، ومدى قبوله للواقع أو صياغة بديل يتعارض معه. وفي أي اتجاه تسلك دعوته إلى التغيير؟ إلى الأمام حيث المستقبل؟ أم إلى الخلف وحبس مشروع التغيير في معاقل الماضي؟ ومدى شعبية هذا الإطار: أهو يعبر عن طموحات أمة؟ أم فئة اجتماعية معينة من فئات الشعب؟

أن هناك علاقة متينة بين الفلسفة والمجتمع، وذلك من جهة أن أي مجتمع ينمو نمواً فلسفياً معيناً حتى إننا نستطيع تلمس فلسفة هذا المجتمع

(1) ميتافيزيقيا: هي فرع من الفلسفة، يبحث عن الحقيقة الأولية للوجود، وتسمى أيضاً (ما وراء الطبيعة).

(2) د. محمد أيمن إسماعيل، النظرية العربية للتربية، دار النهضة التنموية للنشر والتوزيع، بغداد، 1989م.

أو ذاك، وهـي تتـأثر بمسـتوى مجتمعهـا العلمـي الـذي يحـدد محتواهـا النظري وهي تستجيب لمؤثرات مجتمعها الثقافية والدينية المؤثرة فيها[1].

إذٍ الفلسفة المؤسسة على ظروف هذا المجتمـع أو ذاك لهـا تـأثير واضـح في التربية، فمن خلالها يتم بناء فلسـفة تربويـة خاصـة بـالمجتمع. وهـذه الفلسـفة تلعـب دوراً كبـيراً في توجيـه نظريـات التربيـة وتطبيقهـا وهـذا الأثـر والتوجيـه للفلسفة بارز في جوانب منها:

1- توجه فلسفة التربية نظريـات التربيـة وتطبيقاتهـا مـن خـلال تنظـيم نتـائج الميادين المتنوعة، بما في ذلك النتائج المتطورة في حقل التربية نفسها، عـلى أن يقع هذا التنظيم في إطار نظرة شاملة عن الإنسان وعـن التربيـة التـي يركـز هدفها على إعداد الفرد في المجتمع وتنمية شخصـيته لتـتلاءم مـع المتغـيرات الحادثة في الواقع[2].

2- اشتقاق الأهداف التربوية وتحديدها، وتعين الأساليب التربوية وإمتحانها من خـلال دراسـة الأحـوال الاجتماعيـة والثقافيـة والسياسـية ومـا يتخللهـا مـن تناقضـات وصراعـات وتطـورات، لأن أوضـاع التربيـة وأهـدافها ومشـكلاتها ووسائلها ومعوقاتها. بل إن مستقبلها مرهـون بنـوع العلاقـة والتـأثير حجـماً وطبيعة في تلك الأوضاع بالرغم من اعتبار التربية قوة تأثير فيها أيضاً.

3- تركيز المفاهيم التربوية الأساسية وتوضـيحها والتنسـيق بينهـا وصـولاً لأنمـاط فكرية قادرة على تحقيق الاتساق والانسجام في عمليات

---

(1) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة، الموصل الموصل، 1987م.

(2) د. الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، دار الثقافة العربية، بغداد، 1978.

التطور الاجتماعي. ونستخلص أن فلسفة التربية تشكل المنظور الفكري الشمولي الذي تنهض عليه الأهداف العامة التي توجه النشاط التربوي بعامة والنشاط التعليمي بخاصة. وإن القاعدة الفلسفية لأية نظرية تربوية لابد أن تكون متصلة بالواقع. ووثيقة الارتباط بالمرحلة التاريخية.

8

الفصل الثامن

أهداف النظرية العربية للتربية

الفصل الثامن

أهداف النظرية العربية للتربية

لقد اهتمت المجتمعات العربية منذ بداياتها في قطاع التربية والتعليم بوصفه أحد القطاعات الأساسية في المجتمع، ولذلك سعت لتحديد سياسة التربية والتعليم وأهدافها، وجاء ذلك من خلال تشكيل هيئة عليا للتخطيط التربوي وقد انبثقت عنها لجان متعددة أخذ على مسؤوليتها:

1- إعادة صياغة الفلسفة التربوية والأهداف العامة للنظام التعليمي.
2- وضع أهداف المراحل التعليمية.
3- دراسة واقع التعليم في الوطن العربي في ضوء الأهداف العامة والمرحلية.
4- وضع خطة تربوية طويلة الأمد، وأخرى قصيرة الأمد في ضوء واقع النظام التعليمي في الوطن العربي والإمكانات المتاحة.

وقد نتج عن ذلك مبادئ أساسية تستند عليها السياسة التربوية، وهي على الشكل الآتي:

1- تنمية الوعي القومي الذي يضع المعرفة العلمية في خدمة الوحدة العربية.
2- ترسيخ الوحدة الوطنية داخل الوطن العربي وتعبئة طاقات المجتمع المختلفة في معركة البناء.

3- خلق المواطن العربي الذي يرفض التخلف بشتى وجوهه ويملك إرادة التغيير ويصمم على مغالبة التحديات التي تواجه بلاده، ويربط حياته بمستقبل أمته.

4- التأكيد على المعرفة العلمية وأسلوب التفكير العلمي وعلى تكوين العقل المتطور الحديث.

5- الانفتاح والتعاون مع الشعوب الأخرى والتساند الدولي من أجل تحقيق سلام عادل وتحقيق أهداف الشعوب والتقدم البشري.

6- التأكيد على مبادئ الديمقراطية الشعبية التي تحقق التفاعل الخلاق بين الفرد في نموه والأمة في تقدمها.

7- تنمية الروح النضالية لمواجهة التحديات المصيرية التي تواجه البلاد وعلى رأسها الصهيونية.

إن تطور المجتمع يرافقه تطور مماثل لأفراده من أجل أن يتيح لشخصياتهم أن تبلغ أقصى نموها، وذلك من خلال توفيقها بين دواعي التكيف للمجتمع المتجدد ودواعي الإبداع والابتكار. إن كل مواطن يجب أن يحب عمله ويبدع فيه بدقة وينغمس مع الجماعة لتحقيق أقل النتائج. لأن ذلك هو السبيل الأمثل لتقدم الوطن ونهوض الأمة[1].

ولهذا علينا نحن جميعاً أبناء المرحلة وعلى الأجيال القادمة. كل من موقعه ومسؤوليته ومواهبهُ وقدراته أن يؤدي دوره الوطني والإنساني.

لذا علينا نحن أبناء الشعب وأبناء الأمة أن تستنفر كل الطاقات، وكل الجهود في كل المواقع والمرافق والاتجاهات بما يخدم متطلبات المرحلة.

---

(1) د. مهدي قاسم، قواعد السير في الطريق العام، بغداد، مطبعة العمال المركزية، 1982م.

إن المجتمع العربي يسعى بإصرار من أجل تحقيق الأهـداف وعـلى الدولـة أن تستوعب ذلك وتستجيب له. وسيعمل المجتمع بكل الأساليب والوسـائل مـن أجـل بلوغ غاياته وأهدافه. ومن هذه الوسائل:

- التشريع.
- التنظيم السياسي والإداري.
- خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

إن التربية هي الوسيلة الفعالة لتحقيـق ذلـك. وإن هـدف التربيـة الأسـاس في وطننا العربي هو تنشئة جيل تشتمل فيه تلك الخصائص بصورة متكاملة. إن هـدف التربية يحتوي على عنصرين أساسين:

أولاً: الثقافة:

وتتفرع إلى هدفين:

1- الحفاظ على الثقافة العربية وتخليصها من الشوائب التي لحقتهـا. ومـن ثـم العمل على غرسها في نفوس النشء الجديد لتتأصل في سـلوكهم، وفي ولائهـم لها، واعتزازهم بها.
2- تجديد الثقافة بالجهود الإبداعية التي يبذلها الجيل الجديد.

وذلك عن طريق مجابهـة المشـكلات التـي تحـيط بـالمجتمع العـربي المعـاصر والتغلب عليها، والعمل على توفير الحياة الكريمة لأبناء مجتمعنا العربي وشحذ إرادة الكفاح فيهم من أجل تقدم مجتمعهم وازدهاره.

ثانياً: الفرد:

إن الهدف الأساسي للتربية هو تنمية شخصية الجيل الجديـد بكـل جوانبهـا في النواحي الجسمية والفكرية والوجدانية والخلقية. وإن هذا الهدف يتفرع إلى نوعين:

1- تكيف الجيل الجديد لمجتمعه المتجدد واندماجه فيه ومساهمته في نشاطه. ولكي يساهم الشباب بشكل فعال في عملية التغيير، فهم يحتاجون إلى تركيز خاص في الاهتمام، وإلى برنامج خاص بالإضافة إلى البرنامج العام، لكي يكون دورهم دوراً إيجابياً وفعالاً في عملية تغيير المجتمع وبذلك تكون صياغتهم صحيحة.

2- العمل على تمكين الجيل الجديد في تنمية جوانب الإبداع بصورة تكشف عن نواحي التمايز والاستقلال بين أفراده، لتؤدي تلك التنمية إلى مساهمتهم بجهودهم الإبداعية في تقدم المجتمع العربي.

وتتفرع الأهداف الشاملة إلى أهداف فرعية حسب مراحل الدراسة إلا أن هذه الأهداف متلازمة يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً، وهذه الأهداف هي:

1- بناء جيل عربي واعٍ مستنير مؤمن بالله مخلص للوطن العربي، يدرك رسالته القومية والإنسانية، ويثق بنفسه وأمته والعمل على تحصينه ضد كل تسلل أجنبي يهدف إلى إفساد الروح العربية وينقص من الشعور بالقومية العربية.

2- العمل على تنشئة جيل يملك إرادة النضال وأسباب القوة والعمل الإيجابي، سلاحه العلم والخلق لتثبيت مكانة الأمة العربية المجيدة. وتأمين حقها في الحرية والأمن والحياة الكريمة.

3- تعزيز المثل والقيم العربية والإنسانية وتنشئة الجيل على هذه القيم وتأصيلها في سلوكه باستمرار. والعمل على استيعاب كنوز الثقافة العربية والفكرية لتكون عاملاً في تكوينه الثقافي.

4- تنمية الشعور بالقومية العربية والإيمان بها وغرسها في نفوس النشء والتأكيد على أنهم أمة واحدة.

5- العمل على تحليل المجتمع المعاصر من جميع جوانبه وتعيين حاجاته ومشكلاته، ولفت انتباه الناشئة إلى ذلك وتوجيهها من أجل التصدي لتلك المشكلات ومعالجتها.

6- تأكيد الشعور بحق المواطنين في المساواة الاجتماعية والسياسية والفرص المتكافئة والحقوق والواجبات وتدريبهم على تطبيق هذه القيم عملياً في حياتهم الخاصة والعامة.

7- غرس أصول الديمقراطية في النشء وتقويتها، وحثه على ممارستها في نطاق الحياة المدرسية وتنشئتهم على فهم حقوق المواطنة وواجباتها ورعاية المصلحة العامة والاستعداد للخدمة في سبيلها واحترام النظام والقانون.

8- الاهتمام بالفكر الإنساني وإفهامه للجيل الجديد وإشعاره بتفتح الحضارة العربية على الحضارات الإنسانية، وضرورة تعاون البشرية في سبيل خير الإنسانية في مجالات الحياة وفي مجال تحرر الشعوب وتقرير مصيرها.

9- تنمية شخصية النشء الجديد وتطويرها بما يحقق لها التكيف للمجتمع والإسهام في نشاطه. وذلك عن طريق توفير أسباب النمو الجسمي والفكري والمواهب الفنية والتذوق الجمالي، والاهتمام بالعواطف والاتجاهات الإنسانية في التسامح والتعاون والإيثار، والعمل على تنمية نزعات الإبداع والابتكار.

10- غرس حب العمل بجميع أنواعه في نفوس الناشئة. والاستمتاع بإنجازه ليكون ذلك أساساً صالحاً لممارسة المهن.

11- استغلال أوقات الفراغ واستثمارها عن طريق تنمية وأداء أنواع من الخدمة تسهم في خدمة المجتمع وتطويره.

12- تنميـة الـوعي الاقتصـادي والشـعور بأهميـة الاقتصـاد الـوطني، واحـتمال التضحية بأسباب الترف في سبيل مستقبل اقتصادي أفضل للوطن.

13- تأكيد حقائق التكامل العربي في الشعب والمناخ والثروات الطبيعية.

14- تنمية إحسـاس المـواطنين بمسـؤولياتهم نحـو تحريـر الأجـزاء السـلبية مـن الوطن العربي. وإثارة فعل التصدي لكل فعل أجنبـي يهـدف إلى إذلال الأمـة العربية.

ما أعظم آباءنا وأجدادنا الـذين تواصـلوا مـع القـيم والممارسـات الإنسـانية التي اعتمدها السلف الصالح. إذ غالبـاً مـا يـردد الكثـير منـا "بـأن الرجـل الكبـير والمرأة الكبيرة بالسن يمثلون معاني الخير والبركة". إن تشرب الآباء ومن ثم الأبنـاء بروح الأجداد المشـحونة إنسـانية وخـيراً وعطـاءً.. مسـألة كبـيرة وعظيمـة يجـب استيقافها وأخذ ما يمكن أخذه منها من العبر والدروس والقيم.

9

الفصل التاسع

دور التربية في بناء الإنسان العربي

الفصل التاسع

دور التربية في بناء الإنسان العربي

إن كل الديانات السماوية والأنبياء فضلاً عن العظماء والقادة والحركات السياسية والمصلحين والأحزاب ممن تبنوا المبادئ الإنسانية في التاريخ في كل زمان ومكان، سعوا ويسعون دائماً وأبداً إلى بناء الإنسان بناءً قويماً بما يخدم الحياة ويطورها نحو الأفضل من خلال مساعيهم، وأفكارهم ونظرياتهم وطروحاتهم وأهدافهم.. فهم إذن جميعاً.. سعوا أو يسعون وسيسعون وينشطون لتحقيق هدف سامٍ تحدد في تقديم الخير للبشرية، وهذا يتحقق كنتيجة حتمية لفلسفة مساعي بناء الإنسان بناءً صالحاً ومستقيماً. إذ لابد أن يؤمن ذلك الإنسان بالقيم والممارسات الإنسانية الصحيحة، وبعوامل الخير والمحبة والعمل الصالح الهادف والمثمر[1].

إن واحد من أهم أهداف التربية هو بناء شخصية الإنسان وفق أطر الفلسفة الاجتماعية.

إن التربية القائمة على الأيديولوجية العربية تنظر إلى الإنسان بوصفه الهدف والقيمة العليا في المجتمع. إن التأكيد قد جرى على القيمة العليا للإنسان لا بوصفه فرداً قائماً بذاته، بل بوصفه فاعلاً ومتفاعلاً مع مسيرة

---

(1) سيد إبراهيم الجيار، التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، مكتبة غريب، القاهرة، 1987م.

حياة الأمة ومجتمعها العربي، فقيمة الإنسان فيما يقدم وما يمكن أن يقدمه[1].

إن بناء الإنسان بناءً صالحاً ومستقيماً يتطلب وضع ضوابط وقواعد واشتراطات وقوانين، واتباع أعراف وممارسات معينة لابد أن تغرس هذه في قلبه ونفسه أي يجب أن يؤمن ذلك الإنسان بأن هناك ما هو مسموح به ضمن ما هو متعارف عليه من توجهات وسلوكيات وقناعات.. وهناك أيضاًَ ما هو غير مسموح به "فضلاً عن إدراكه ومعرفته بالممنوعات والمحرمات، إلى ضرورة ابتعاده عن السلوكيات والتوجهات التي تعد من الكبائر والآثام، وتجنبه ما هو ليس مغتفراً وغير مسموح به. فإن عرف الإنسان - أي المواطن - تلك الحدود والتزم بها وسبح ضمن إطار الممكن المتاح والمسموح به منها سيصل إلى شاطئ الأمان باطمئنان وثقة عالية وذلك من خلال المبادئ السامية التي توطد حركة بناء ذلك الإنسان والمجتمع والدولة. أي أن ذلك الإنسان سيصبح عنصراً نافعاً وفاعلاً ونشطاً في الاتجاهات التي تخدم وتطور وتغني الحياة وتعزز مسيرة الوطن والأمة[2].

وعندما نعتبر الإنسان قيمة عليا وهدفاً كبيراً، لا نقصد بذلك أن يكون معزولاً عن المجتمع في الحركة والعمل، وفي التضامن الجماعي وإنما ننظر إليه كقيمة وهدف ضمن تطور المجتمع وعلى أساس تضامن هذا الإنسان مع المجتمع وقيم العمل الجماعي[3].

---

(1) لطفي بركات أحمد، في مجالات التربية المعاصرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1979م.

(2) خليل إبراهيم عبد اللطيف، النشاط (أهميته، أسسه ووسائل تطويره في العراق)، مطبعة دار السلام، بغداد.

(3) منير مرسى سرحان، في اجتماعيات التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987م.

التعبير عن نظرية عربية للتربيـة يؤكـد عـلى تنميـة جميـع قـدرات الإنسـان العربي وجوانب شخصيته العلميـة والفكريـة والوجدانيـة والجسـمية، وتـرى هـذه النظرية أن العناية بجانب واحـد أو جوانـب محـددة لشخصـية الإنسـان سـوف لا تنتج إلا صورة مشوهة، فهذه النظرية تـرى أن تكـون العنايـة بكـل جانـب بشـكل متفاعل ومتوازن مع الجوانب الأخرى للشخصية كي تكون هذه الشخصية متناسـقة ومؤثرة.

أي أن ذلك الإنسان سيصبح عنصراً نافعاً وفـاعلاً ونشـطاً في الاتجاهـات التـي تخدم وتطور وتغني الحياة وتعزز مسيرة الوطن والأمة.

وقد يكون بناء الإنسان لذاته هو من أفضل عمليـات البنـاء في هـذا الميـدان وأنجحها، فإن حدث هذا الفعل فإن نتائجه ستكون رائعة، لأنه "أي الفعـل" يكـون نتيجة ولدت من قناعة ذاتية حصلت مـن خـلال قناعـات غـير مفروضـة، إن هـذا النوع من البناء يكون أصيلاً وراسخاً، وعظيم النتائج والمردودات.. وهكذا فإن ذلـك الإنسان الذي يبني أو بنى ذاته بذاتـه ضـمن الاشـتراطات السـالف ذكرهـا وضـمن مواصفات عصره ومتطلباته، يصبح رمزاً مشعاً، إن تسلم مسؤولية بناء الآخرين[1].

إن هدف التربية هو بناء الإنسان العـربي الجديـد المتكامـل النمـو في جميـع شخصيته، وأن بناء الإنسان يعني بناء المجتمع، لأن النظرية العربيـة للتربيـة تؤكـد ضرورة الاهتمام بكل الجماهير وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع.

أما عـن النظريـات التربويـة والأهـداف التـي تسـعى لتحقيقهـا، فالنظريـات التربوية القديمة لم تهتم بالإنسان بوصفه قيمة عليا وهدفاً في ذاته، وإنما

---

(1) د. سلام علي الجبوري، أهمية التربية في تجربـة التنميـة، وزارة التعلـيم العـالي، والبحـث العلمـي، جامعـة الموصل، الموصل، 1987م.

اهتمت بقلة من أفراد المجتمع وهم الذين يمثلون طبقات معينة، حاكمة أو كهنوتية أو دينية، ومن ثم فإن هدف تلك النظريات هو الحفاظ على التقسيم الطبقي في المجتمع آنذاك لأنها لا تؤمن بتكافؤ فرص بين أبناء المجتمع الواحد[1].

وأن بعض النظريات التربوية القديمة لم تأخذ جوانب نمو الشخصية بشكل متوازن. فقد عنيت بعض النظريات بالجوانب الجسمية على حساب الجوانب الأخرى.

أما النظريات الحديثة فبعضها قد عدّ الإنسان وسيلة لتحقيق التنمية الاقتصادية، وبرزت تبعاً لذلك مفاهيم القوى العاملة والطاقة البشرية والكفاءة الاقتصادية للتربية. ومنها ما اهتم بالإنسان من منطلق علم النفس والتأكيد على جانب الفروق الفردية من منطلق لا يوفر الفرص المتكافئة بل يوفر فرصاً خاصةً لشرائح معينة في المجتمع تكون بتلك الفرص "النخبة أو الصفوة"[2].

ومقابل هذه النظريات نجد النظرية العربية للتربية تؤمن بالإنسان هدفاً وقيمة عليا في المجتمع، وتؤمن بضرورة تهيئة كل الفرص أمامه كي يعبر عن إمكاناته وطاقاته الكامنة بما يؤمن بناء شخصية متكاملة.

إن فلسفة بناء الإنسان تعتمد على حقيقة كون الإنسان هدفاً ووسيلة، فالإنسان إذن هو العنصر المهم في عمليات البناء والنهوض.. وكي تنهض الأمة لابد من تحقيق الشرط الأساسي للنهوض من خلال بناء الإنسان المؤمن

(1) سيد إبراهيم الجيار، التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، مكتبة غريب القاهرة، 1987م.

(2) نزار عبد اللطيف الحديثي، الأمة والدولة في السياسة العربية في القرن الأول الهجري، بغداد، 1989م.

والمنتظر الذي ستقع على عاتقه عمليات التغيير والبناء والنهوض، فإذن هـو (أي الإنسان) الوسيلة وبالنتيجة هو الغاية لأن نهوض المجتمع والأمة سيقدم لذلك الإنسان كل الخير والاستقرار والرفاهية والتقدم على طريق الكرامة والعزة[1].

وعمليـة بنـاء الإنسـان بهـذه المواصـفات تتطلـب قـادة مـن نمـط خـاص في شخصياتهم بحيث يكونون قدوة صـالحة يقتـدي بهـا ويعـرف مـن خلالـه حقوقـه وواجباته.

وتؤكد الأفكار التربوية مفهـوم العمـل الجماعـي بمـا يخلـق عمليـة التفاعـل والمعاناة مع المجتمـع وواقعـه لخلـق الأنمـوذج الأمثـل في بنـاء الإنسـان المتفـاني في خدمة الأمة والمجتمع، وهذا يتطلب التفاعل مع الأفكار التي تطـرح تحـت خيمـة العمل الجماعي[2].

ويؤكد الفكر التربوي على عـدم التفـريط بـأي إنسـان لأنـه جـزء مـن الـثروة القومية للأمة والوطن، حتى عندما يشذ عـن الطريـق السـليم فالـدعوة إلى الصـبر والمثابرة من أجل إحداث التغيير في سلوك الإنسان الشـاذ، وإذا تمكنـا مـن إحـداث التغيير فإننا نضيف عنصراً جديداً إلى خزين الـثروة القوميـة، إن ذلـك يحـدث عـن طريق التوعية الإضافية مع الدور المسؤول القيادي الواعي[3].

---

(1) د. طارق حبيب برسيم، العبقرية العربية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1991م.

(2) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، الموصل، 1987م.

(3) جارلس ماج، المجتمع في العقل ، ترجمة د. إحسان محمد الحسـن، دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، بغـداد، 1990م.

ويجب التأكيد على ضرورة الموازنة والتفاعل بين القيم ومما يحقق بناء الإنسان العربي الجديد ومن أنماط هذه الموازنة بين الحقوق والواجبات.

1- أن للمواطن حقوق وعليه واجبات، وإن الواجب الوطني والمفاهيم الجديدة لبناء المجتمع تقتضي أن تجري موازنة دقيقة بين هذه الحقوق والواجبات، وتجنب الميل إلى حساب الحقوق لصالح الواجبات أو العكس.

2- ارتباط الإيمان بالعمل، ودوره في إسعاد الناس وحقهم في الحياة الكريمة الخالية من الظلم والاستغلال ليحقق مبدأ العدالة. ويربط ربطاً محكماً بين دور الإنسان في تحقيق العدالة على الأرض وبالإيمان بوجدانية الخالق. وعلى هذا الأساس فإن دور الإنسان في الأرض دور أساسي وحاسم وليس دوراً فرعياً أو جزئياً، ذلك لأن الجوهر الأساسي لقوانين السماء إنما يرتكز على مبدأين أساسيين التوحيد ومتطلباته في علاقة الإنسان بالسماء وإقامة العدالة على الأرض في علاقة الإنسان بالإنسان.

3- الإيمان بالإنسان بوصفه قيمة عليا دعته إلى اعتبار خسارة أي فرد مخلص في الوطن العربي خسارة عظيمة يصعب تعويضها، لأن البناء الحضاري يحتاج إلى كل البشر الصالحين.

4- تنمية الشعور القومي، ولعل الغاية هي حماية وبناء الشخصية القومية وتأكيد أصالة الأمة العربية ووحدتها وفق مفهوم حضاري متجدد.

5- قيمة الاحترام والتقدير من الناحية التربوية مصدراً من مصادر قوة شخصية الإنسان.

6- ضرورة الالتزام والانضباط بوصفهما قيمة تربوية وذلك في احترام سياقات العمل المنظم والالتزام بتنفيذ الأوامر بدقة وحماسة. وجعل حب

النظام ومراعاته والسير حسب قواعده سلوكاً لابـد أن يـتحلى بـه أبنـاء مجتمعنـا الجديد.

7- إن الطموح قيمة تربوية في بناء شخصية الإنسان العربي الجديد.

وكي يبنى الإنسان بناءً سليماً وصحيحاً، لابـد أن يبـدأ ببنـاء ثقافتـه وتطـوير ملكاته الذهنية لتفجير ما كمن في ضميره وقلبه وجسده من طاقات وإبداعات غير منظورة. فمن ضـمن عوامـل بنـاء الإنسـان المهمـة والأساسـية هـي رفـع المسـتوى العلمي والثقافي[1].

(1) د. سلام علي الجبوري، أهمية التربيـة في تجربـة التنميـة، وزارة التعلـيم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة الموصل، الموصل، 1987م.

10

الفصل العاشر

الطفل في العملية التربوية

الفصل العاشر

الطفل في العملية التربوية

من الطفولة الباكرة تبدأ عملية بناء الإنسان العربي الجديد، فلذلك يجب رسم الخطوات الأساسية لإقامة صرح هذا البناء.

وتعد مرحلة الطفولة من مراحل النمو المهمة أن لم تكن أهمها جميعاً، فهي مرحلة إعداد وتكوين، فيها تغرس البذور الأولى لمقومات وملامح شخصية الفرد المستقبلية ويتحدد فيها مسار نمو الطفل عقلياً واجتماعياً وانفعالياً، وتتشكل معظم عاداته، واتجاهاته واستعداداته لذلك فإن الخصائص الجوهرية لحياة الإنسان تقوم على خواص طفولته. إلا أن الطفل بقدراته المحدودة وبمستوى نموه المتدرج لا يتمكن أن يكتب الخبرات الحسية والاتجاهات الاجتماعية بمفرده فهو محتاج إلى من يرعاه ويشرف على تربيته، ويوفر له المثيرات التنبيهية الملائمة[1].

ومما لاشك فيه أن أسرة الطفل تعد من أهم العناصر والمؤسسات التربوية والاجتماعية التي يمكن أن تقوم بهذا الدور الفاعل في رعايته وتربيته وتوجيه نموه لأنها البيئة التي يتعرض لها الطفل ويقضي فيها أهم سنوات حياته[2].

فالأسرة هي البيئة التربوية الأولى للطفل وهي التي تشكله حسب الروح السائدة بين الأفراد المكونين لهذه الأسرة، وكثيراً ما يؤثر فيه كل ما يحيط به سواء شكل المنزل، وطريقة العيش فيه. ومحتوياته، وموقعه، والحي الموجود

---

(1) جميل صليبا، مستقبل التربية في العالم العربي، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، 1967م.

(2) د. لطفي بركات أحمد، في مجالات التربية المعاصرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1979م.

فيه، ومستوى الأسرة الاقتصادي والاجتماعي، وترتيب الفرد في العائلة سواء كان أصغر الأبناء أو أكبرهم، أو الذكر بين الإناث أو الأنثى الوحيدة بين الذكور، أو الطفل الوحيد في الأسرة[1].

وتتكون أولى بذور شخصياتهم وتتأثر حياتهم وسلوكهم نتيجة لتربيتهم المنزلية. على أن تنمية شخصية الأطفال في الأسرة وتحقيق ذاتيتهم تكون بمراعاة سد حاجاتهم الضرورية في مراحل نموهم الأولى.

ومن تلك الحاجات[2]:

1- الحاجة إلى الطمأنينة وبأنه آمن من الأخطار التي قد يتعرض لها.
2- الحاجة إلى المغامرة واكتساب الخبرات والاعتماد على النفس.
3- الحاجة إلى تقدير الآخرين أي أنه يجب أن يشجعه الآخرون عندما يجيد مما يدعوه إلى متابعة إبداعه في أعماله.
4- الحاجة إلى الحب المتبادل أي أن يحب ويُحب.

وعلى هذا الأساس نقول: إن الطفل يتلقى دروسه الأولى في مدرسة الأسرة.

إن تقدم المجتمع وحاجته إلى الإعداد الصحيح في جميع جوانب حياة الطفل وفي كافة مكوناتها فرضت على الدولة أن تسهم من خلال منظماتها ومؤسساتها المختلفة متعاونة في توجيه وتربية الأطفال وسيكون هذا بالنتيجة أيضاً توجيهاً للعائلة نحو الاتجاه الصحيح.

أهمية مرحلة الطفولة في العملية التربوية:

1- إن ما يتعلمه الطفل في مرحلة ما من حياته يترك آثاره سلبية كانت أم إيجابية على المراحل التالية من هذه الحياة. وبأن لكل مرحلة سماتها

---

(1) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية)، بدون دار نشر، 1983م.

(2) المصدر السابق نفسه.

الخاصة التي لابد من رعايتها ومعالجتها بالطريقـة التـي تتناسـب وتلـك المرحلـة في النمو.

2- لابد من اللجوء إلى معرفة ما توصل إليه علماء النفس وعلماء التربية مـن ناحيـة، ومـا تـم تطبيقـه في المجتمعـات المتحضرـة الأخـرى عـلى شرط إلا تؤخـذ الخـبرة وتطبق كما هي، بل يتم اللجوء إلى تطبيقها على نطاق ضيق في مدارس تجريبيـة فإن نجحت يـتم تعميمهـا عـلى القطـر كلـه، وإلا فتعـدل بحيـث تصـبح ملائمـة لسماته ومميزاته الخاصة. وعـلى ذلـك فـإن هـذه الطريقـة في المعالجـة تتطلـب مربين واعين مؤمنين بأهمية الطفل ودوره في قيادة المجتمع.

وظائف الأسرة التربوية[1]:

1- التربية الجسدية: عـن طريـق تهيئـة طعامـه وشرابـه والاعتنـاء بصـحته وملبسـه ومأواه.

2- التربية العقلية: يكون بالاعتناء بتنمية القـوى العقليـة وتنشـيط التفكـير وتغذيـة الفكر وتدريبه على حل مشكلاته.

3- التربية الاجتماعية: تعليم الطفل كيف يتعامل مع أقرانه تعاملاً صـحيحاً، واحـترام رأي الغير والموازنة بين حقوقهم وواجباتهم ومعرفة ما لهم وما عليهم.

4- التربية الخلقية: تعلم الطفل كيف يعيش حياة فاضـلة تتناسـب مـع قـيم وخلـق المجتمع.

5- التربية الدينية: توجيه الطفل نحو عقيدتهم، وتعلمـه أداء العبـادات التـي تقربـه من خالقه.

6- التربية الترويحية: يقـع عـلى عـاتق الأسرة تعلـيم الطفـل التمتـع بأوقـات الفـراغ واستغلاله.

---

(1) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية، ط5، بدون دار نشر، عمان، 1983م).

أما المدرسة هي المؤسسة التربوية التي تقوم بتربية الأجيال الصاعدة تربية مخططاً لها وتسير على منهاج منظم أعد بدقة بحيث يتناسب مع نمو الأفراد العقلي والجسمي والنفسي والاجتماعي.

أهداف المؤسسات التربوية التي ترعى الطفل وتنمي شخصيته[1]:

1- تزويد الأطفال ابتداءً من إكمالهم السادسة من العمر بالتربية والثقافة الضروريتين لجعلهم مواطنين صالحين سليمي الجسم والعقل والخلق يؤمنون بالله يدركون رسالتهم التقدمية والإنسانية ويخلصون لوطنهم.

2- اكتشاف استعداداتهم ومواهبهم لتوجيههم إلى ما يناسب هذه الاستعدادات والمواهب بما يكفل تنميتها والانتفاع بها في حياتهم الاجتماعية والثقافية والمهنية.

3- تمكينهم من تطوير شخصياتهم بجوانبها الجسمية والفكرية والخلقية والروحية ليصبحوا مواطنين سليمي الجسم والعقل والخلق يعملون بما فيه الخير لمجتمعهم وتحقيق التنمية والتقدم فيه.

---

(1) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، الموصل، 1987م.

11

الفصل الحادي عشر

الطالب في العملية التربوية

الفصل الحادي عشر

الطالب في العملية التربوية

إن الطالب واحد من أهم عناصر العملية التربوية. ولعل ذلك يعود إلى أنه الهدف في هذه العملية. والتعليم كما هو معروف تغيير في السلوك تتولاه المدرسة بوصفها مؤسسة اجتماعية مهمتها إعداد الجيل وتعزيز المعارف وتنميتها باستمرار بحيث لا تكون متخلفة عن ميدان الحياة. وأن عملية التعليم لا تقوم على الحفظ والتلقين، بل ينبغي أن يقترن التعلم بالممارسة الحية في مواقف الحياة اليومية.

ولقد أدرك الخبراء الدور الذي يلعبه التعليم في بناء الشخصية الجديدة للطالب. وبهذا نجدهم يرفضون الدور التقليدي للطالب في العملية التربوية ويطالبون ببناء شخصيته الفاعلة الذي يكون لها دور متميز في المادة التعليمية، وهذا هو ما يطالب به الخبراء على مستوى العملية التعليمية في المؤسسات التربوية الرسمية.

ويلفت الخبراء أنظار المسؤولين على العملية التربوية إلى مسألة في غاية الأهمية وهي أن يتحقق للطالب من خلال العملية التربوية شخصية مؤمنة بالأمة العربية وأن يكشف تفكيره وسلوكه عن ولائه للوطن، وأمانته في أداء الواجب المكلف به واحترامه للزمن وتعامله معه بكفاءة عالية[1].

فالمدرسة الحديثة هي إحدى مؤسسات المجتمع التربوية الاجتماعية التي لا تعمل في عزلة في تعليم التلاميذ، وهي التي تهتم بنمو وحياة التلاميذ وتهتم

---

(1) د. محمد أبو يوسف، دور الطالب وأهميته في الإدارة المدرسية، دار الأسرة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1996م.

بالخبرة التي يكتسبونها في حياتهم المدرسية والتي تؤثر على شخصياتهم وتهتم بالعلاقات الإنسانية، وأهمية الخبرة العملية في الحياة وهي في سبيل إعداد التلاميذ وتربيتهم يجب عليها وعلى من يديرها من مديرين ومدرسين:

1- التعرف على أهمية الفرد كفرد وإنسان ومساعدته على فهم نفسه وتحقيق هدفه.

2- مساعدة الفرد على الاتصال بعالمه الداخلي والخارجي.

3- الاهتمام بالصحة العامة للتلاميذ.

4- الاهتمام بما تُعلمه للتلميذ وتطبيقه في الحياة العملية.

5- الاهتمام ببناء الشعور العام للتلاميذ وفهم دوافعهم وسلوكياتهم في إطار مراحل النمو.

وعلى هذا الأساس يكون فعل التربية في شخصية الطالب مزدوجاً: فهو من ناحية غرس عادات وتقاليد جديدة. ومن ناحية أخرى تحصينه من العادات والتقاليد البالية.

والمطلوب تنمية أحاسيس الطالب ومشاعره وتفكيره وأن يساعد على الاعتياد على اتفاق عمله، وتعليمه وكيفية تنمية معارفه، وتشجيعه حب النظام واحترام القوانين والضبط.

ولعل الهدف الأبعد من تعليم الطالب حب النظام، وتحميله تفاصيل تطبيعية تعزز إعداده العالي لمواجهة الظروف الصعبة في الحياة الخاصة أو في الحياة العامة التي يمر بها، فالهدف الأبعد هو بناء شخصية صبورة وقوية للطالب، بحيث يكون قادراً على مواجهة ظروف الحرب، مندمجاً بقدرات في الحياة ومتطلباتها[1].

---

(1) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، بدون تاريخ.

وتلميذ اليوم يعيش عصراً معقداً صعباً متغيراً، يحاول فيه البحث عن نفسه. عن كيانه وسط التركيبات المختلفة للمجتمع الذي يعيش فيه، ويحاول أن يجد لنفسه الإجابة على كثير من التساؤلات التي قد يستطيع الحصول على الإجابة عن بعضها والتي يجد أحياناً صعوبة في فهمها واستيعاب معناها[1].

ويرى أحدهم أن مهمة العملية التربوية هي تبصير الطالب بأهمية العمل في حياته الشخصية وفي حياة المجتمعات والشعوب. وأن تغرس في كيانه قيمة العمل - النشاط، مع محاولة الربط بين هذين، وأن تستغل كل الفرص المتاحة من المناهج الدراسية للتأكيد على ذلك. وأن تحفزه على أن يظهر هذا الربط بين العمل والنشاط لكل نتائج هذا الربط بين العمل والنشاط[2]. ومدير المدرسة الناجح لا يعتمد على معرفته للتلاميذ على خبرته السابقة في التدريس كمدرس سابق بل يجب عليه أن يعرف أن تلميذ اليوم ليس كتلميذ الأمس، ليفهم بعمق أكثر إدراكهم بهذا العالم، بالإضافة إلى كيفية تأقلم المشاكل التي يقابلونها في حياتهم.

إن نجاح العملية التربوية وتحقيق أهدافها يعتمد على إمكانية خلق شخصية الطالب العارف لحقوقه وواجباته، وحقوق وواجبات معلمه فضلاً عن معرفة تعليمات وقوانين المؤسسة التربوية. ويقيناً أنه إذا عرف ذلك فإنه سيتعامل بروحية وأخلاق ومثابرة مع معلمه من أجل إنجاز الخطط وتحقيق الأهداف المطلوبة.

وبخلاف ذلك يتوقف كل شيء أو ربما يتعثر، فتفشل العملية التربوية ويفشل المربون، والنتيجة هي تكوين شخصية فاشلة.

---

(1) د. عبد المؤمن فرج، الإدارة المدرسية المعاصرة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1994م.

(2) د. أحمد عثمان نعيم، المدخل إلى التربية المقارنة، دار ابن سينا للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 19991م.

إن انتماء الطالب إلى العمل الجماعي في مجال الدروس العملية يساعد كثيراً في ارتفاع مستوى حيويته ونشاطه وتوجهه نحو العمل.

إن الفرد ضمن الجماعة يقوم بواجبه بدافع الشعور بالمسؤولية مما يدفعه إلى مراعاة النظام ليضمن حسن سير العمل للوصول إلى الأهداف المرسومة وكل ذلك يجري وفق أسلوب التعاون بين أفراد المجموعة. ولكي يكون الفرد مقبولاً عند الجماعة فإن عليه تربية ذاته وتوسيع معلوماته المعرفية وكل هذه سمات مهمة للاندفاع نحو الإجادة بالعمل، وعلينا ألا ننسى دوافع المجموعة نفسها، فإنها تؤثر على أفرادها بشكل مباشر وتحركها نحو المشاركة الفعالة ليتم التفاعل بين أفرادها عن طريق تبادل الخبرات والمعارف.

القيم التربوية التي تفيد في بناء شخصية الطالب:

1- بيان المشرفين على العملية التربوية أن مهمتهم هي تبصير الطالب بأهمية العلاقة الديمقراطية بينه وبين المعلم. وذلك لأن نجاح العملية التربوية وتحقيق أهدافها يعتمد على إمكانية خلق شخصية الطالب العارف لحقوقه وواجباته، وحقوق وواجبات معلمه فضلاً عن معرفة تعليمات وقوانين المؤسسة التربوية. ويقيناً أنه إذا عرف ذلك فإنه سيتعامل بروحية وأخلاق ومثابرة مع معلمه من أجل إنجاز الخطط وتحقيق الأهداف المطلوبة، وبخلاف ذلك يتوقف كل شيء أو ربما يتعثر، فتفشل العملية التربوية ويفشل المربون، والنتيجة هي تكوين شخصية لا تتلاءم الأمة.

2- إشاعة العمل الجماعي في نشاطات الطلبة، لأن ذلك يحقق التعاون بينهم ويدفعهم للعمل بجد من أجل الوصول إلى النتيجة النهائية.

إن انتماء الطالب إلى العمل الجماعي في مجال الدروس العملية يساعد كثيراً في ارتفاع مستوى حيويته ونشاطه وتوجهه نحو العمل.

إن الفرد ضمن الجماعة يقوم بواجبه بدافع الشعور بالمسؤولية مما يدفعه إلى مراعاة النظام ليضمن حسن سير العمل للوصول إلى الأهداف المرسومة وكل ذلك يجري وفق أسلوب التعاون بين أفراد المجموعة. ولكي يكون الفرد مقبولاً عند الجماعة. فإن عليه تربية ذاته وتوسيع معلوماته المعرفية، وكل هذه سمات مهمة للاندفاع نحو الإجادة بالعمل، وعلينا ألا ننسى دوافع المجموعة نفسها، فإنها تؤثر على أفرادها بشكل مباشر وتحركها نحو المشاركة الفعالة ليتم التفاعل بين أفرادها عن طريق تبادل الخبرات والمعارف. فلكل فرد في المجموعة يطرح أراءه فيفيد الآخرين ويستفيد منهم.

3- جعل من الإنسان العربي غاية التربية والهدف والقيمة العليا في المجتمع. وهذا الفهم يحسب على الطالب، فهو تجسيد لشخصية الإنسان العربي الجديد في مرحلة من مراحل عمره. وعلى هذا الأساس ينبغي علينا أن نحترم شخصية الطالب. وأن نهيأ له كل الظروف والمستلزمات من أجل التعبير عن شخصيته.

4- ان من مهمات العملية التربوية تمكين الطالب من اكتشاف الواقع، وبذلك تنشط القدرة الاستكشافية عنده. فالنشاطات الأدبية والعلمية والثقافية من شأنها ان تشحذ لدى الطالب الحس بالواقع والرغبة في اكتشافه اكتشافاً منفرداً أي إبداعياً.

5- خلق شخصية قيادية لدى الطالب لأنه يستحمل مستقبلاً مسؤولية قيادة المجتمع.

6- تنمية الروح النقدية في شخصية الطالب.

7- تكوين شخصية طموحه للطالب لا تقف عند حدود، بل تسعى دائماً نحو الكمال.

8- إن التعليم تغيير في السلوك تتولاه المدرسة بوصفها مؤسسة اجتماعية مهمتها إعداد الجيل وتعزيز المعارف وتنميتها باستمرار بحيث لا تكون متخلفة عن ميدان الحياة. إن عملية التعليم لا تقوم على التحفيظ والتلقين الببغاوي بل ينبغي أن يقترن التعلم بالممارسة الحية بمواقف الحياة اليومية. أن مبدأ التعلم الذي يستند إلى الممارسة والسلوك ولا يقتصر على التحفيظ والتلقين فقط مبدأ سليم يجعل الطالب متفهماً لحياته ودوره في المجتمع، فضلاً عن أشعاره بأهمية ما يتعلمه نظرياً عن طريق تطبيقه عملياً.

9- ينبغي أن تتضمن عمليات الإعداد النفسي والجسمي للطالب عدة جوانب منها غرس قدرات عمل أساسية وعامة، والتوسع بالمعلومات بخصوص الأنشطة المهنية المختلفة والانضواء تحت لواء جماعة العمل لخلق المناخ العاطفي العام والارتفاع بمستوى الروح المعنوية.

وأن الإحساس بالحاجة يعد واقعاً ضرورياً للقيام بالأعمال ويتمثل ذلك بتشخيص النواقص في إعداد الفرد لاتخاذ الخطوات المطلوبة للإصلاح، أن كل ذلك يجب أن يقدم وفق نظام منسق مع المراحل العمرية التي يمر بها التلميذ منذ انتمائه للمدرسة، وقد يكون من المفيد أن تراعى النقاط الآتية:

أ- أن يكون الهدف الرئيسي الذي يتوجه نحو منهاج الإعداد هو تكوين شخصية التلميذ.

ب- أن تتميز الأنشطة المدرسية بتشعب واسع في أشكال الفعاليات ذات الفائدة الاجتماعية ولاسيما خلال العطل الصيفية.

ج- تنسيق مناهج لقاءات مع المبدعين من المهنيين في مجامع من الأنشطة الاجتماعية.

12

الفصل الثاني عشر

المعلم في العملية التربوية

الفصل الثاني عشر

المعلم في العملية التربوية

يلعب المعلم أدواراً مهمة وأساسية في عملية التعلم، فهو بحكم موقعه في العملية التربوية يستطيع أن يغرس ويعدل الكثير من الاتجاهات والأفكار والقيم والممارسات مما يعمق في نفوس الطلبة. وحيث أن التعليم هو ركيزة بناء البشر- وهم القائمون والمستفيدون من عمليات التنمية، فإن موقع المعلم ودوره يؤثر إلى حد كبير في صياغة الواقع والمستقبل.

إن العملية التربوية تتكون من عناصر ثلاثة هي الطالب والمعلم والمنهج، والمعلم هو الذي يترجم محتوى المنهج إلى سلوك لتحقيق الأهداف المطلوبة.

وعلى أية حال فإن المعلم (المدرس) هو حجر الزاوية في العملية التربوية ونجاحها في تحقيق أهدافها، والعامل الإيجابي الذي يجسدها وينقلها من مجال المطامح النظرية أو التطلعات إلى حيز الواقع الملموس.

ويترتب على عمل المعلم أمران، هما نجاح المعلم أو فشله والحقيقة أن نجاح المعلم في عمله يتوقف بالدرجة على نوع إعداده، فأحسن المناهج الدراسية قد تموت في يد معلم لا يقدر على تدريسها، والمنهج الميت قد تعود إليه الحياة إذا ما وجد معلماً مؤهلاً[1].

---

(1) جابر عبد الحميد، علم النفس التربوي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1977م.

وإعداد المعلم تتمثل في أربعة أبعاد وهي[1]:

1- البعد الأكاديمي: أن يكون المعلم معداً ومتسلحاً في ميدان تخصصه حتى يؤدي رسالته على أفضل صورة ممكنة.
2- البعد المهني: إمداد المعلم بالثقافة النفسية والتربوية لمطالب النمو في كل مرحلة وفيما يتعلق بالمناهج وطرائق التدريس والأهداف التربوية.
3- البعد الثقافي: إلمام المعلم بجوانب الحياة ومشكلاتها والقضايا العامة.
4- البعد الشخصي والاجتماعي: أن يكون المعلم قدوة حسنة لطلبته حتى ينعكس ذلك على سلوكهم.

ويترتب على إغفال إعداد المعلم الإعداد السليم، تخرج معلم ذي إنتاجية محددة، غير قادرة على تحمل أعباء المهنة، والمطلوب اليوم معلم تتحدد خصائصه في ضوء فلسفة المجتمع وآماله وتطلعاته وفي ضوء طبيعة العصر بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وفي ضوء مستقبل مليء بالتحديات والصراعات.

خصائص المعلم الفاعل في عملية الإعداد والتقويم بجهوده:

1- المعلم بالرغم من تعدد مصادر التيارات الثقافية وتزايد وسائل الاتصال الجماهيرية ما يزال عماد العملية التربوية والعامل الأول المؤثر والمتأثر الذي يتوقف عليه نجاح التربية في بلوغ غاياتها به.
2- أن المعلم بوصفه أداة للتغيير الحضاري يمكن أن ينهض بدوره في تطوير التربية في الوطن العربي في إطار التنمية الشاملة ببعدها

---

(1) د. وهيب مجيد الكبيسي، صالح الداهري، المدخل في علم النفس التربوي، دار الكندي للنشر والتوزيع، اربد، 2000م.

الاقتصادي والاجتماعي لأنه يعد القوى العاملة من ناحية، ولأن التعلم عملية استثمارية ترفع من كفاءة الفرد وتزيد من إنتاجيته من ناحية أخرى.

3- من أجل تحقيق فاعلية أكثر من جانب المعلم يقتضي الأمر أن لا يقتصر دور المعلم على الاستقبال والتلقي، بل لابد أن تتاح له فرص المشاركة في التخطيط والتجديد والتقويم.

4- يتطلب دور المعلم في عصرنا المتغير أن نهتم بمناهج إعداده وتدريبه بما يكسبه غايات تعليمية تجعله قادراً على أداء دوره الجديد.

5- أن الواقع الحالي لإعداد المعلم وتدريبه يقصر عن الوفاء بحاجاته وحاجات طلابه في مجتمع سريع في تغيره، متفجر في معارفه.

6- أن متطلبات استراتيجية التربية في إعداد المعلم تدعو إلى إعادة النظر في مناهج إعداد المعلمين من حيث نظم القبول والأهداف والمحتوى والطرق والوسائل والتقويم وهي توجب علينا الأخذ بالاتجاهات الحديثة في التعلم الذاتي والتربية المستمرة.

7- يجب أن ترتكز بمناهج إعداد المعلمين قبل الخدمة ومتابعتهم في أثنائها على حقائق علم التربية وطرائق الحصول على المعرفة الإنسانية وأن تستند في ممارستها على نتائج الأبحاث والتجريب.

8- أن يستهدف إعداد المعلم وتدريبه وتوجيهه وتمكينه من الفهم الدقيق للمجتمع الذي يعيش فيه على المستوى المحلي والوطني والعربي مع تكليفه بالحرص الشديد على الاستفادة من هذا الفهم في أداء مسؤولياته المهنية.

ويجب على الفكر التربوي أن يمـنح أهميـة متميـزة لمعلـم المرحلـة الابتدائيـة ولعل السبب في هذا الترجيح يعود إلى أن هذه المرحلة تبدأ عملية تكوين، وترسـيخ الملامح الأساسية لشخصية الطالب.

ولهذا تكون مهمة معلم المرحلة الابتدائية مهمة وصـعبة ودقيقـة، وذلـك لأن طريقة معاملة المعلم وأسلوبه تترك بصماتها في تكوين شخصية الطالب وهي اللبنـة والأساس الذي تقام عليه دعائم الشخصية في المراحل اللاحقة، فهي بلا شـك أصـعب من مهمة مدرس المرحلة الثانوية وأستاذ الجامعة.

القيم التربوية التي تفيد في بناء شخصية المعلم:

1- ان المعلم هو أب لطلابه، وهو القائد لذلك يتوجـب عليـه أن يعامـل طلابـه بإحساس أبوي.

2- يتوجب على المعلـم أن يعلـم طلابـه أداء واجبـاتهم في نفـس الوقـت الـذي يطالبون فيه بحقوقهم. فليس هناك حقوق بدون أداء الواجبات.

3- ان المعلم هو المثال القريب الذي يتصل به الطالب، فالمطلوب منه أن يكون القدوة الحسنة التي يقتدي بها الطالب.

4- ينبغي على المعلم أن يرتقي بجهده التربوي إلى أعلى المستويات وألا يتعامـل مع الواجب الذي يلف بـه ضـمن الإطـار الـوظيفي التقليـدي، لأن ذلـك لـه انعكاسات خطيرة على شخصية طلبته وسلوكهم ونظرتهم للواجب مستقبلاً.

5- ان دور المعلم أساسي ومهم في إعداد الطالب للتكيف والمشـاركة في مجتمـع متغـير بكـل المضـامين، وذلـك لـكي يبنـي جـيلاً قـادراً عـلى النهـوض بالمهـام الجديدة.

6- إن التفاعل الذي ينبغي الوصول إليه وتحقيقه في مدارسنا على كافة المستويات يتم عندما يدرك المعلمون والمدرسون أنهم ليسوا مدرسين بالمعنى الأكاديمي البحت، بل موجهين تربويين ضمن إطار المدرسة ويتحقق ذلك عندما يتحول الشعور من العلاقة التدريسية إلى العلاقة التربوية بين المدرس والطالب ويتأصل في ضمائر المدرسين كونهم آباء لأبناء.

7- إن للمدرسة وظيفة اجتماعية فضلاً عن وظيفتها الثقافية، وهي وبذلك تلعب الدور الأساس في بناء شخصية الطالب الاجتماعية، ففيها يتعلم الطالب التكيف الاجتماعي، ويكتسب خبرات اجتماعية تساعده على التلاؤم. إن نجاح التكيف يتوقف على نوع العلاقة بين المدرس والطالب، لأن المدرس جزء من البيئة المدرسية وله أثر كبير في سلوك التلاميذ الاجتماعي. لأن الطالب في طفولته كالمرأة تعكس حالة المدرس المزاجية واستعداداته الانفعالية.

13

الفصل الثالث عشر

المنهج في العملية التربوية

الفصل الثالث عشر

المنهج في العملية التربوية

المنهج يعلب دوراً أساسياً في عملية تكوين شخصية الطالب من النواحي العقلية والجسمية والانفعالية. فمن خلال المنهج يستطيع المعلم التأثير إلى حد كبير في شخصيات طلابه، ومن ثم يحقق نمواً متكاملاً لشخصياتهم. إن الأهداف أولى مكونات المنهج وتمثل نقطة البداية لعملياته سواء ما ان يتصل بتخطيطه أو تنفيذه، إذ أن مخططي المنهج يختارون محتوى المادة الدراسية في ضوء ما سبق تحديده من الأهداف، ويعني هذا أن اختيار المحتوى يخضع تماماً للأهداف[1].

إن صياغة المنهج وحده لا يحقق الأهداف المطلوبة من العملية التربوية، ان هذا يتطلب تحديد الوسائل الفعالة لتطبيق المنهج.

إن اختيار المحتوى وتقديمه للمتعلم لا يعني أن الأهداف سيتم تحقيقها أو بلوغها بطريقة تلقائية، ولكن الشئ المؤكد هو أن المحتوى وغيره من عناصر المنهج تعمل على نحو متكامل في سبيل ذلك، وهذا يعني أن يكون اختيار المحتوى في إطار معين هو الأهداف، ولما كانت أهداف المنهج يجب أن تشتمل على نواحٍ معرفية ووجدانية ونفسية وحركية عدة، معنى ذلك أن المحتوى

(1) د. هاشم السمرائي، وآخرون، المناهج - أسسها - تطويرها - نظرياتها، دار الأمل للنشر والتوزيع، اربد، ط2، 2001.

يجب أن يكون متكاملاً في ضوء الأهداف وهـذا يقتضيـ هـو الآخـر تصـنيف المحتوى في ضوء تصنيف أهداف المنهج التي يتم تحويلها إلى أهداف إجرائية يمكـن تحقيقها.

الخصائص العامة للمنهج:

1- أن يكون المنهج واقعياً.
2- أن يؤكد المنهج على الجوانب الإنسانية.
3- أن يكون منهجاً يهدف إلى تكوين شخصية الطالب.
4- أن يتسم المنهج بالشـمولية بحيـث يحقـق بنـاء شخصـية متكاملـة للطالـب تجعله ينهج في حياته، في تفكيره وسلوكه نهجاً شمولياً.
5- أن يكون منهجاً قومياً، بحيث يتمكن من خلق هوية قومية للطالب. ولذلك يطلـب منـه أن يقـيم علاقـة عضـوية مـع الـتراث الثقـافي العـربي وحسـب الاختصاصات كافة.
6- أن يسعى المنهج إلى بناء شخصية مسـتقبلية للطالـب، وبـذلك يتطلـب مـن المنهج الا يحصر تحليلاته للواقع بكل مكوناته وحسب، وإنما يطلـب منـه أن يخلق لدى الطالب حافز التطلع نحو المستقبل العربي المأمول.
7- أن يؤكد المنهج على الأسلوب العلمي وأهمية العلـم في حيـاة الأمـة العربيـة والهدف من ذلك بناء شخصية علمية للطالب.
8- أن يؤكد المنهج على بناء مجتمع عربي وحدوي، وبهذا يطلب منه أن يتصدى لكل ثقافة أو سلوك يتعارض وقيام المجتمـع، وأن يعـزز في الوقـت نفسـه في ثقافة الطالب وسلوكه.

مصادر الأهداف التربوية للمناهج:

1- الفلسفة السياسية: وهي تمثل فلسـفة المجتمـع وأهدافـه والإطـار الفلسـفي الذي يحوي أهدافاً تربوية منسقة ذات دلالة وأهمية تسهم إلى

حد كبير في حذف الأهداف المتنافسة مع مسيرة المجتمع وسياسة الدولة وفلسفتها التي تحكم طريقة حياة المجتمع وفي أنظمة متوازنة تنبثق منها مسألة اتخاذ القرارات اللازمة لمسار التربية وتطلعاتها.

2- التراث الثقافي: وهي القيم والعادات والتقاليد التي يعنيها وما يمتلكه من فكر وأدب وحضارة وفن واتجاهات يتوارثها عبر الأجيال تحافظ على شخصية المجتمع وتحول دون انحرافه.

3-طبيعة المتعلم وحاجاته: وهو ما يمتلكه المتعلم من قدرات واستعدادات، وما عنده من ميول ودوافع من خبرات وتطلعات، ما هو عليه من نضج وقدرة عقلية ومن معتقدات واهتمامات وطبيعة خاصة تفرض جميعاً مضامين وأساليب تربوية معينة.

4- التطور العلمي والتكنولوجي: ان ما يحيط العالم من تطور تكنولوجي كبير، لابد له من أن يعكس نفسه على مستوى الأهداف والمناهج مما يجعل منظري المناهج في حيرة من أمرهم في الاختيار الدقيق والحاسم وفقاً للمراحل الدراسية وللمواد والموضوعات ذات العلاقة.

5- اقتراحات المتخصصين: حيث تعتبر اقتراحاتهم مصدراً من مصادر اشتقاق الأهداف، وينبغي أن يعد الكتب الدراسية المتخصصون في المواد الدراسية وهم يعكسون بشكل أو بآخر جهات نظرهم الخاصة.

الأهداف المطلوبة التي يترتب على المنهج تحقيقها[1]:

1- يهدف المنهج إلى بناء جيلاً يؤمن بالقومية، وجيل يناضل من أجل تكوينه ضمن المجتمع العربي.

---

(1) د. محمد جلوب فرحان، الفلسفة التربوية، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل، الموصل، 1987م.

2- يهدف المنهج إلى تشخيص الأعداء التقليديين، وأن نتحدث عن التربية الوطنية وتشخيص الأعداء التقليديين ليس بالطريق الجاري أو بالحديث المباشر فحسب وإنما بالصورة التي تجعل الطالب والطفل يستمر في كراهيته للاستعمار.

3- يهدف المنهج إلى خلق إنسان يقود المجتمع.

4- يهدف المنهج إلى بناء إنسان قومي وذو عقل حي وذلك من أجل خدمة المجتمع الجديد ومساعدة الإنسان الجديد لكي يقف.

5- يهدف المنهج إلى غرس حب النظام في شخصية الجيل الجديد، لأن أحد أسرار النجاح في بناء المجتمع الجديد هو حب النظام.

6- أن يهدف المنهج إلى بناء شخصية واقعية.

7- أن يهدف إلى بناء وتنمية الروح النقدية لدى الطالب.

8- أن يهدف إلى بناء جيل غير مفرط بأموال الدولة ومجتمعه.

الأسس الفكرية في مجال إعادة النظر في مضمون المناهج:

1- أن نركز في مضمون المنهج على التاريخ العربي الإسلامي، وأن تبرز للطالب الجوانب المشرقة فيه، فالإسلام قدم للبشرية معنى الحياة والسعادة التي يفتقر إليها الإنسان بوجود الأمم السابقة قبل الإسلام، فالقوى كان يأكل الضعيف، والظلم قائم، والفواحش قائمة، حتى جاء الإسلام ووجد لهم معنى الكرامة والسعادة بحق. فعلينا أن نهتم به وأن نكتبه بما ينسجم مع هذا الفهم لا أن نحرفه ونكتبه حسب الهوى الشخصي.

2- أن ينسجم مضمون المنهج مع مبادئ الوطن.

3- أن نبرز في مضمون المنهج قيمة الفداء والتضحية ومناهضة الشر، ودور الأبطال في مسيرة الأمة والشعب.

4- عدم السماح بإدخال الفكر البرجوازي[1] في مضمون المنهج.

5- أن نبتعد عن إثارة الطائفية، ونحن نكتب مضمون المنهج، وذلك لأن الطائفية مرض يهدم بناء المجتمع.

6- إجراء دراسة نقدية للاتجاهات الفكرية والسياسية والتربوية.. سواء الرأسمالية أو الماركسية[2]، وألا نسمح بأن تعرض النظريات على مستوى واحد، لان في هذا العمل خطورة على ذهنية وسلوك الطالب.

7- أن ينحاز مضمون المنهج نحو العلم والتقنية والثقافة العلمية، وهذا الانحياز يساعد على بناء شخصية علمية قادرة على قيادة وتنفيذ مشروع التحويل الحضاري الشامل بوجهيه العلمي والتقني.

8- أن يمزج في مضمون المنهج بين المعرفة النظرية الأكاديمية وخبرة الميدان وهذا المزج يحقق فائدة مزدوجة، فالمعرفة النظرية الأكاديمية تدعم بخبرة الميدان، وخبرة الميدان يتم تصعيدها إلى مستوى المعرفة النظرية.

9- ينبغي أن تراعى عند كتابة مضمون المنهج، أمور كثيرة منها:

- العمر الزمني.

---

(1) البرجوازية: تطلق البرجوازية حديثاً على فئة من المجتمع يمتلكون ثروة بدون أدنى مجهود يذكر، ويناصرون النظام القائم، ويفضلون الترف كأسلوب لحياتهم، ويعتبرهم الناس من أحقر فئات المجتمع.

(2) الماركسية: نظرية سياسية مفادها أن الرأسمالية يمكن أن تتعايش مع الشيوعية، ويرى أنصار هذه النظرية أن فرض الدكتاتورية من قبل جماعة معينة على باقي الطبقات أو القضاء على الخصوم بالعنف وتصفية النظام الحاكم. لا يمكن أن تتفق مع العدل والضمير والمنطق.

- العمر العقلي.

- مستوى نضج مدارك الطلبة وقدراتهم العقلية وخبراتهم السابقة.

10- ضرورة التنسيق والتكامل بين لجان وضع المناهج وتأليف الكتب المنهجية، وهذا المبدأ يحقق الوحدة والتناسق، وذلك لأن المناهج والكتب إذا ما فقدت وحدتها وتكاملها انعدم التوازن والتدرج المطلوب في عرض الموضوعات العلمية بحيث يظهر فيها الأسلوب التربوي.

11- لفت نظر مؤلفي الكتب المنهجية إلى أن يبتعدوا عن الغموض والتصعيد.

12- ان تطوير المنهج بصورة موضوعية وعلمية لا بد أن يأخذ بنظر الاعتبار واقع المجتمع وخصائصه. مع النظرة إلى التنبؤ لما سيحدث حسب صيغة التطور القائم في المجتمع. وهذه ليست نظرة منغلقة ومتحجرة، بل تعتمد على الخبرات العلمية لدى الدول المتقدمة دون أخذها ضيفاً جاهزة.

13- ربط مواد المنهج بالحياة اليومية، والهدف من ذلك تبصير الطالب بتفاصيل العمل اليومي وتسمية روح النقد الموضوعي.

14- العملية التربوية لا يمكن أن تتطور ما لم تكن الأساليب التدريسية حديثة، بحيث تخلق حالة التفاعل بين مكوناتها.

14

الفصل الرابع عشر

التربية والتراث

الفصل الرابع عشر

التربيــة والتــراث

لقد حاول أعداء الإسلام مواجهته بالقوة العسكرية، حيث عرف الشعب العـربي أنواعاً مختلفة من الهيمنات، تقف على رأسها في العصر الحديث، الهيمنة الاستعمارية. وبعد مرحلة التحرير وفك الارتباط عن مراكز الاسـتقطاب السـياسي العـالمي، وتعزيـز الاستقلال الوطني ظهرت أنماط جديدة مـن الهيمنـات لـربط الشـعب العـربي بمراكـز الاستقطاب العالمي وجعل تجربته المعاصرة ناقصة مشوهة أو سائرة في إطـار التجربـة الغربية في أحسن الأحوال. حيث أدركوا أن مواجهة الإسلام بالقوة العسكرية وأسـاليب القمع لن ولم تحقق لهم التخلص من الإسلام، أو حتى الحد من انتشاره، فكانـت لهـم محاولات عديدة فقد جربوا ذلك في الحروب الصـليبية المتكـررة في العصـور الوسـطى والعصر الحاضر، التي اجتاحت العالم الإسلامي، وكانت النتيجة أنهم لم يفلحوا في ذلك.

وكان إدراكهـم كـذلك أن الغـزو العسـكري لـديار الإسـلام غـير مجـدٍ لأنـه كثـير التكاليف المادية والبشرية، فلا بد إذاً من طريقة أخرى يدخلون بهـا إلى ديـار الإسـلام، فتوجهوا إلى غزوه ثقافياً وفكرياً وعقلياً.

والاستعمار الغربي الذي هاجم العالم الإسلامي من بضعة قرون كانت له أهداف مزدوجة. فلقد كان طامع في خيرات الشرق الكثيرة حيـث يراهـا ميراثـاً لا صـاحب لـه، وهو في الوقت نفسه مثقل بضغائن قديمه، حيث يكره الإسلام، وأهله كراهية شديدة، ويشتد كرهه للعرب خاصة، فهو قوم محمد

صلى الله عليه وسلم وحملة رسالته وما تزال لغتهم مستودع كتابه وسنته[1].

إن بقاء التنمية العربية في إطار التنمية الغربية تجعل من القضية على مستوى من الخطورة. ومن المعروف أن الوجه المهم من أوجه هذه التنمية، هو التنمية البشرية، وتنمية عقلية الإنسان العربي، وتربيته وتحصينه ثقافياً من أجل مواجهة الأنماط الثقافية الغربية التي تهدف إلى احتلال الذهنية العربية في جملة ما تهدف إليه، لتسهل مهمة الأجنبي في إبقاء احتلاله للأرض العربية. وإبقاء هيمنته على مرافق الحياة المختلفة من خلال مناهج التنمية التي يهدف العربي إلى إنجازها. إن الأساس الفلسفي للتربية العربية يحمل نقداً للنظرات المتخالفة للتربية العربية. ويقيم في الوقت نفسه وصولاً مع الجوانب المشرقة التي تعزز الانتصار للجهود الوحدوية للمجتمع العربي، ويفتح حواراً مع النظريات التربوية المعاصرة التي أفرزها العقل الغربي. فهي نظريات ترتبط بالإرث الثقافي والتربوي الغربي، وهي بنت الواقع الغربي، ومن الثابت أن الواقع العربي يختلف ويتمايز عن الواقع الغربي بمختلف مفاصله.

وعن طريق الإطلاع على النظريات التربوية الغربية المعاصرة، تتهيأ للعقل العربي فرصة للتعرف على كيفية صياغة الأسس الفلسفية التي تنهض عليها النظرية. بعد هذه المرحلة يخطو العقل العربي خطوة أخرى، وهي صوغ الأسس الفلسفية التي تنهض عليها النظرية التربوية العربية المعاصرة. ويشكل التراث التربوي العربي طرفاً من أطراف المعادل الفلسفي للنظرية التربوية العربية المعاصرة. إذ عليه تعوّل الأمة العربية في تحديد أصالتها. وعليه تقع مهمة الدفاع عن هوية المثال التربوي العربي المعاصر.

إن أمتنا مستهدفة لأنها الانتماء القومي، وهي الانتماء للأرض. للوطن

---

(1) سامر محي الدين أمين، الإشاعة أداة حرب على الإسلام والمسلمين، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، 2006م.

العربي الكبير، وهي في كل ما يعبر عن هذا الانتماء. إنها في التاريخ والجغرافيا معاً.

والثقافة هي في كل ما تعبر به الهوية عن ذاتها في العادات والتقاليد والتراث، إنها في النمط الاجتماعي العربي. الثقافة ترسم ملامح الهوية وترتبط بها ارتباط الروح بالجسد. إنها في الوصول والقيم والمفاهيم والمثل والتي تتعرض اليوم لهزة، بل لهزات عنيفة. والثقافة هي السلاح الاستراتيجي وهي الأمن الاستراتيجي الذي تتسور به كافة الأمم لصون ديمومتها الإنسانية والحضارية في مواجهة الأخطار المصيرية المحدقة بها[1].

وفي الحقيقة أن التراث التربوي العربي ضم اتجاهات تربوية متناقضة تصب في نظراتها التجديدية في محيط التجزئة، من جهة أنها نظرات تربوية تعزز التحالف وتكرس مواقف التشرذم، والاستقطاب الناسف لوحدة الأمة العربية، وحدة الفكر، وحدة المجتمع، والنظرة الموحدة للإنسان بوصفه (عقلاً وساعداً وروحاً وجسماً).

إن الأساس الفلسفي للنظرية العربية للتربية يميز وهو يراجع التراث التربوي العربي. بين التراث والعبء والتراث الحافز، ويباشر في الوقت نفسه فعل شطب للتراث العبء، بعد أن تأمل فيه وتمثله تمثيلاً طويلاً كاشفاً عن أسسه الفلسفية، عارفاً أهداف المنهاج التربوي الذي ينهض على هذه الأسس، مشخصاً الأسباب التي دفعت إلى ظهور التشرذم والاستقطاب الاجتماعي. وأدت إلى تشكيل أسس فلسفية قامت عليها النظرات التربوية التي تبرز هذا التشرذم والاستقطاب.

وتكشف هذه المراجعة أن هذه الاتجاهات قد أسهمت من مواقعها في دفع الاتجاه التربوي العربي العام إلى أن يقوم بمراجعة نظراته من ناحية الأسس

---

(1) د. أحمد فهد ادعلي، الحرب تستهدف الإسلام، بدون دار نشر، القاهرة، 2000م.

الفلسفية. والمؤسسات التعليمية ومناهجها. وأحدث فيها بعض التجديد أحياناً فضلاً عن الترميم في اغلب الأحيان، بعد أن فتحت الاتجاهات التربوية التي دفعتها قوى التشرذم شروخاً في الأساس الفلسفي للاتجاه التربوي العام. إن المراجعة للتراث التربوي العربي تزود النظرية العربية للتربية بدروس مستفادة تساعد في اختيار الطريق الذي يتعامل به مع البقية الباقية من هذا الإرث المتخالف مع طموح الأمة العربية في التوحيد. فمن المعروف أن هذا الإرث تدفع به بعض مراكز الاستقطاب يسهم في تمزيق وحدة الأمة العربية. ويسهل مهمتها في التخريب أو الهيمنة. وهنا تلتقي أهداف القوى المحلية المتخالفة مع طموحات الأمة العربية مع أهداف القوى الأجنبية الناشدة فرض الهيمنة على الوطن العربي في التخريب الفكري، وهدم بناء جزء من الشخصية العربية لتحقيق أغراضها الخاصة، إنها جريمة القوى الرجعية المحلية والقوى الأجنبية. والنظرية التربوية العربية تتطلع إلى إنهاء المناهج والخطط التربوية والتخريبية في هذا الاتجاه من الساحة الثقافية العربية. إننا نعيش في الوطن العربي حالة من حرب ثقافية، وسياسية، وعسكرية، واقتصادية، واجتماعية تستهدف وجودنا وحاضرنا ومستقبلنا، وتدمير أخلاقيتنا، ومثلنا، وتغريبنا عن هويتنا وتراثنا، وقطع كافة الجذور والأواصر التي تربط بعضها ببعض، وتشدنا جميعاً إلى أمة حضارية معطاء. إنها حرب هادئة لا يرافقها دوي المدافع، ولكنها لا تقل ضراوة عن حرب الدبابات والطائرات.. إنها أيدز يصيب الأمة أفراداً وجماعات وحكومات - إذ ما استفحل حالها - بفقدان المناعة، فيسهل على الطامحين بها، تفكيكها، وتذويبها، وابتلاعها، والتمدد في أرضها، ونهب ثرواتها.. وإذ نتناول هذه الحرب الشائكة والمعقدة، والتي تشكل الإشاعة إحدى مفرزاتها، وأخطر أسلحتها، كما استطعنا كشفها وتبيانها من موقع الغيرية الوطنية، ومن خلال ثوابت وأحداث ووقائع نعشها معاً في أرجاء الوطن العربي الكبير، مما نضعه بين يديك، موثقاً فما ذلك بغرض التهويل والترهيب، بل من أجل الإرتقاء إلى مستوى المسؤولية وتحصين أنفسنا وناشئتنا في مواجهة وباء فتاك،

قبل أن يستشري في أوصال الجسد العربي، وجلاء الشك باليقين. وكلنا ثقة بأن إنساننا العربي، الذي ما زال يعيش على أرضه العربية ويتشبث بترابها كما بأمجادها، ويتنفس عبق عروبتها، وشذى تراثها، قادر على مواجهة كافة التحديات والانتصار على كافة المحن، لأنه يمتلك من الأصالة والصلابة التي تجذرت عبر تاريخ موغل في القدم، كما يملك من بعد النظر، ووضوح الرؤيا السليمة، ما يمكنه من تمييز الخبيث من الطيب من القول، والعمل[1].

يثير التراث التربوي العربي جملة مسائل، يمكن الكشف عنها في الجوانب الآتية:

1- تكمن مشكلة الإرث التربوي العربي في اتساع الأرض العربية، وانفتاح حدود الجزيرة العربية بحيث امتدت إلى أراضٍ كانت فيها مواطن حضارية سابقة، احتوت مستودعات ثقافية تضمنت مناهج تربوية خاصة. لقد كانت الأمم التي تعيش من حول الجزيرة العربية قبيل الإسلام، حيث كان يتصدر العالم آنذاك دولتان اثنتان، تتقاسمان العالم المتمدن هما: فارس والروم، ويأتي من ورائهما اليونان والهند.

أما فارس فقد كانت حقلاً لوساوس دينية فلسفية متصارعة مختلفة، كان فيها الزرادشتية التي اعتنقها ذوو السلطة الحاكمون، وكان من فلسفتها تفضيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته، حتى إن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بابنته. هذا إلى جانب انحرافات خلقية مشينة مختلفة. وكان فيها (المزدكية) التي قامت على فلسفة أخرى هي حلّ النساء وإباحة الأموال وجعل الناس شراكة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، وقد حظيت هذه الدعوة باستجابة عظيمة لدى أصحاب الرعونات والأهواء وصادفت لديهم قبولاً عظيماً.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

أما الرومان، فقد كانت تسيطر عليها الروح الاستعمارية، وكانت منهمكة في خلاف ديني بينها من جهة وبين نصارى الشام، ومصر من جهة أخرى، وكانت تعتمد على قوتها العسكرية وطموحها الاستعماري في مغامرة عجيبة من أجل تطويرها للمسيحية والتلاعب بها حسبما توحي به مطامعها وأهواؤها المستشرقية. ولم تكن هذه الدولة في الوقت نفسه أقل انحلالاً من دولة الفرس، فقد كانت تسودها حياة التبذل والانحطاط والظلم الاقتصادي من جراء كثرة الإتاوات، ومضاعفة الضرائب أما اليونان فقد كانت غارقة في هوسات من خرافتها وأساطيرها الكلامية التي منيت بها دون أن ترقي منها إلى ثمرة أو نتيجة مفيدة.

وأما الهند، فقد كانت غارقة في تاريخها أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعياً ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس عشر الميلادي، فقد ساهمت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الأخلاقي والاجتماعي. إن القدر المشترك الذي أوقع هذه الأمم المختلفة فيما وقعت فيه من انحلال واضطراب وشقاء، إنما هو الحضارة والمدنية اللتان تقومان على أساس من القيم المادية وحدها دون أن يكون ثمة مثل أعلى بعقود هذه الحضارة والمدنية في سبيلهما المستقيم الصحيح، ذلك أن الحضارة بمختلف مقوماتها ومظاهرها ليست سوى وسيلة وسبب.

أما عن الجزيرة العربية فقد كانت هادئة بعيدة بل منعزلة عن مظاهر هذه الاضطرابات كلها. فلم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتغنون في خلق وسائل الانحلال وفلسفة مظاهر الإباحية والانحطاط الخفي ووضعها في قوالب من الدين، ولم يكن لديهم من الطغيان العسكري والروماني ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أي رقعة من حولهم، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليوناني ما يصبحون به فريسة للأساطير والخرافات.

2- تكمـن مشـكلة الإرث التربـوي العـربي، في المصـادر المعرفيـة التـي اعتمـد عليهـا المشرفون. ونلاحظ نوعين من المصادر المعرفية المعتمـدة في تشـكيل مبـاني الإرث التربوي العربي، مصدر معرفي داخلي تمثل بما قدمته دائرة الإيمـان مـن منطلقـات لبناء الإنسان والمجتمع وما ارتبط بذلك من فعاليات، فضلاً عن اجتهادات فقهيـة لصالح التربويات الموجهـة بالمنطلقـات الإيمانيـة. ومصـدر معـرفي خـارجي، تمثـل بتراث إنساني حمل منـاهج تربويـة لأمـم وشـعوب أخـرى، حملـت معهـا أسسـاً فكرية جديدة.

إن هذه المشكلة في المصادر المعرفية للنظرية العربية للتربية. حملـت في البدايـة نوعاً من المجابهة بين اتبـاع المصـدرين، وصـلت إلى حـد الـرفض التـام للمصـدر الخارجي وإتهام أصحابه بالمروق. ونلاحظ في مرحلة لاحقـة انصراف اهتمامـات التربويين إلى إيجاد نوع من التكييف بينهما، فنشأ نوع مـن الحـوار الثقـافي عـزز كل المواقف واسـقط بعـض الحـواجز الفكريـة والنفسـية بـين الطـرفين فكانـت تربويات ثقافية تتجه في أحسن الأحوال نحو التربية الخلقيـة والعقليـة والدينيـة والحقيقة أن الواقع كان منسياً في أغلب الأحيان.

3- تكمن مشكلة الإرث التربوي العربي في الأزمة الذاتية التي عاشـها المنظـر التربـوي العربي. فمن المعروف أن تجربة الذات مزاجها، مشكلاتها، ارتباطاتها الأيديولوجية تلعب دوراً مؤثراً في صياغة النسق التربوي، وأن اختلاف الأسـس الفلسـفية التـي تنهض عليها التربويات، ترجيح لأفكار فيلسوف على فيلسوف، منهج عـلى مـنهج، وكل هذه الخيارات تتأثر بالأزمة الذاتية التي يمر بها التربوي.

4- تكمن مشكلة الإرث التربوي العربي في الأزمة الاجتماعية والسياسـية والاقتصـادية والثقافية، إذ من المعروف أن التربية ترتبط بالنظم الاجتماعية، فالبيئة الاجتماعية هي تلك البيئة التـي صـنعها الإنسـان واسـتعمل في ذلـك فكـره وعقلـه وتـدبيره وعمله وتراثه.

وعند دراسة الأسس الاجتماعية لابد من معرفة الأبعاد البنائية للمجتمعات. أي تركيب المجتمع[1]:

1- البناء الطبيعي: ويقصد به المؤثرات الخارجية من البيئة الطبيعية كالمناخ والتضاريس والمصادر الطبيعية.

2- البناء السكاني: ويقصد به جنس السكان ودينهم أو نوعهم أو أصلهم أو تركيبهم العمري.

3- البناء المهني، أي وجود صناعات ومهن معينة أو جدتها أوضاع ظروف خاصة للمجتمع. كظهور المهن أو الأعمال البحرية في البلدان التي تقع على شواطئ البحار.

4- البناء الطبقي / الاجتماعي، ويقصد به نظام الطبقات في المجتمع والمستويات الاجتماعية.

5- البناء التنظيمي، ويقصد بذلك نظام الحكم السائد في المجتمع ديمقراطياً جمهورياً، ملكياً، أميرياً، شيوعياً... الخ.

6- البناء المؤسسي، النظام الإداري في الريف والمدن والحضر، ونظام المدارس رسمية وغير رسمية، ونظام دوائر الدولة... الخ.

أما ارتباط التربية بالنظم السياسية، فقد شهدت العصور الحديثة نهضة سياسية وتحررت كثير من الأمم والدول وتأثرت بذلك العملية التربوية وجاءت الأفكار التحررية السياسية والتي كان لها أثر كبير على التربية. فهيجل (مثلاً) يرى أن هدف التربية هو غرس إرادة الدولة في إرادة الفرد وتبنت هذه الآراء عدة دول منها ألمانيا، وإيطاليا، ثم روسياً.. وجاءت أفكار جون دوي التي

---

(1) د. إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية)، بدون دار نشر، عمان، 1983م.

تبحث في تحقيق المساواة وإزالة الفروق الفردية والتحـرر مـن القيـود والقيـام بالعمل الإيجابي لصالح الجماعة وإعطاء الحرية للأفراد للمشـاركة في الشـؤون العامـة، وذلك عن طريق الاقتراع العام في شؤون الدولة[1].

أما ارتباط التربية بالنظم الاقتصادية، إن العلاقة بين البنـاء الاقتصـادي والعمليـة التربوية تظهر بوضوح في العصور الحديثة، فالمناطق التي يقوم اقتصادها القـوي عـلى الزراعة تتـأثر تربيـة أبنائهـا وقـيمهم ومفـاهيمهم بالنظـام السـائد في منطقـتهم، أمـا المناطق التي تعتمد في حياتها على نظام اقتصادي تجاري وصـناعي معـين. سـواء كـان رأسمالياً أو اشـتراكياً، فـإن التربيـة تتـأثر في أي منهـا بمـا يتناسـب والنظـام الاقتصـادي الموجود.

فالعلاقـة بـين التربيـة والاقتصـاد علاقـة متبادلـة فمسـتوى المعيشـة يـرتبط بالمستويات الثقافية والعلمية والتعليمية التي يصل إليها الناس.

فوجود أعـداد كبـيرة مـن الأميـين يـؤدي إلى تخلـف اقتصـادي فكلـما ارتفعـت المستويات الاقتصادية للأفراد والدولة كلما زاد الدخل القومي وتقـدمت الأمـة ارتقـت وتطورت[2].

أما ارتباط التربية بالنظم الدينية، ففي العصور الحديثة ظهرت اتجاهات وأفكـار أثرت في العمليات التربوية هي الأخرى معتقدات مثل: الماركسية[3]

---

(1) المصدر السابق نفسه، ص3.

(2) المصدر السابق نفسه، ص31.

(3) الماركسية: نظرية سياسية مفادها أن الرأسمالية يمكن أن تتعايش مع الشيوعية. ويرى أنصار هذه النظريـة أن فرض الدكتاتورية من قبل جماعة معينة على باقي الطبقات أو القضاء على الخصوم بـالعنف وتصـفية النظام الحاكم، لا يمكن ان تتفق مع العدل والضمير والمنطق.

واللينينية[1] - وغيرها، فالدين أو المعتقد سواء كان سماوياً أو غير سماوي، روحياً أو مادياً. لابد من أن ينبع من فلسفة حياة فلسفة يسير عليها المجتمع وبالتالي يصبح هدفاً تربوياً نابعاً من تلك الفلسفة.

أما ارتباط التربية بالنظم الثقافية، التربية لا تعمل في فراغ وإنما تستمد مقوماتها من ثقافة المجتمع ولا تربية بدون أساس ثقافي تقوم عليه، وأساس التربية يقوم على المحافظة على التراث الثقافي وذلك لتوحيد الأفراد وتوجيه سلوكهم وأفكارهم.

فأثر الدين والفلسفات السياسية وأثر العوامل الاجتماعي والاقتصادية والنمو الثقافي للمجتمع واضح في تشكيل عناصر التربية، وتحديد اتجاه محصلتها ورسم أغراضها.

من الثابت أن التراث هو مجموعة أفكار ومواقف ونظريات. يعكس في أنساقه المختلفة مصالح فئات اجتماعية، وأمزجة وطموحات طوائف ويحمل توجهات وتطلعات، ولا تقف عند حدود الماضي. وإنما تتعدى ذلك إلى الحاضر. وهنا تكمن خطورتها على المجتمع العربي الذي تطمح النظرية التربوية أن توحده. وترفض من ثم النظريات التربوية التي تؤدي إلى انقسام المجتمع العربي وبعثرته.

---

(1) لينينية: هي مجموعة نظريات الزعيم الشيوعي الروسي (فلاديمير أوليانوف: 1870-1934م) والملقب بـ (لينيل)، وهذه النظريات تعتبر مكملة للنظريات الماركسية والمادية الجدلية، والتي تهدف في النهاية إلى تطبيق النظريات (الماركسية) على الأوضاع الخاصة بروسيا وإظهار عناصرها الثورية.

وتعتبر نظريات (لينين) إضافة جديدة إلى نظريات (كارل ماركس).

15

الفصل الخامس عشر

التربية والعلم والتقنية

الفصل الخامس عشر

التربية والعلم والتقنية

بالعلم يعم الرخاء وينشر السلام ألويته

يقولون أن الرخاء، كالسلام لا يتجزأ، والعلم الذي يصنع الرخاء، بزيادة الإنتاج، ورفع مستوى الحياة، هو نفسه يصنع السلام، حتى يجد كل إنسان حاجته من الغذاء...

ومنذ أنشئت هيئة الأمم المتحدة، بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في منتصف الأربعينيات، وأن منظمات هذه الهيئة ولجانها، لتقوم بدراسات علمية واسعة النطاق على المستوى العلمي العالمي، في محاولة لدراسة المشاكل، التي تتعرض لها البشرية، محاولة أن تصنع الحلول العملية الملائمة لكل مشكلة. وقد قسمت دول العالم إلى ثلاث فئات، وأطلقت اصطلاح العالم الثالث على الدول المتخلفة أو النامية، وهي التي تحتاج إلى جهود مخلصة جبارة النهوض واللحاق بالركب وإنما يكون ذلك باستغلال إمكانياتها، والاستفادة من مبتكرات العلم والتكنولوجيا.

عالم صغير.

ولا مراء في أن العالم قد غدا صغيراً، كأنما ألغيت المسافات إلغاء، وأنك لتتحدث أمام المذياع، فيسمعك من هم في النصف الآخر من الكرة الأرضية، ربما قبل أن يسمعك مباشرة من هم معك في القاعة نفسها. وأنك

لتقف أمام التلفاز، فيراك من هم على الطرف الآخر من سطح الأرض وقد لا يراك بوضوح، من هو غير بعيد منك على بعد عشرات الأمتار. وما لنا نذهب بعيداً وقد رأينا وسمعنا رواد الفضاء. رأيناهم يتجولون على سطح القمر بعد مئات الألوف من الكيلو مترات، فلم تعد هذه المسافات تعجزنا، على أن الذي يزعجنا حقاً هو هذا التزايد السكاني المخيف، الذي قد يؤدي إلى انفجار. وفي بضع سنين سيصل سكان الأرض إلى أربعة آلاف مليون نسمة. فإما أن ينتصر العلم - وما شك في أنه سينتصر - فتجد هذه المليارات من الأنفس المأكل والمشرب والملبس والمأوى، وأما أن تحل الكارثة وإذا وقعت فلن ينجو من آثارها أحد، فإن الرخاء والسلام لا يتجزآن، والعلم القادر على تعميم الرخاء هو نفسه قادر على نشر ألوية السلام.

وقد اختصر الزمن كما اختصرت المسافات والعلم يعمل اليوم بحصيلة تقدمه في آلاف من السنين خلت، فقد أمضت الإنسانية مائة سنة لتفيد من كشف الباخرة، وستاً وخمسين سنة لتفيد من كشف الهاتف وخمساً وثلاثين سنة لتصنيع اللاسلكي بعد كشفه، وخمس عشرة سنة لتفيد من الرادار، واثنتي عشرة سنة لتفيد من التلفاز، وخمس سنوات لنشر الترانزيستور، وما هي الكشوف الجديدة تسابق الزمن من صواريخ وحاسبات إلكترونية وسفن فضاء ومحطات فضاء وغيرها.

وها هو العالم ينقسم إلى دول متقدمة جداً، يصل متوسط دخل الفرد فيها إلى خمسة أو ستة آلاف دولار سنوياً، على حين أن ثلاثة أرباع سكان العالم يعيشون في شظف من العيش، لا يكاد يبلغ متوسط دخل الفرد في العالم خمسين أو ستين أو مائة دولار، فهناك عالم متقدم يكتفي ذاتياً، وآخر هو ما يسمى بالعالم الثالث فريسة الفاقة والعوز، هي الدول المتخلفة التي تتسع الهوة كل يوم بينها وبين الدول المتقدمة. فإذا لم يتدارك الأمر، فقد تقع كارثة تمزق السلام على سطح الأرض.

قارات الجوع :

فإذا أوقعت الواقعة - لا قدر الله. فإنها تهدد أمن دولة متقدمة كالولايات المتحدة الأمريكية أكثر مما تهددها الأسلحة النووية الصينية. إن قارات الجوع آسيا وأفريقيا الجنوبية يسكنها ثلاثة أرباع سكان العالم، وعلى هيئة اليونسكو وهيئة الصحة العالمية، وهيئة الأرصاد العالمية والوكالة الدولية للطاقة الذرية، عليها أن تتكاتف لتنفيذ المشروعات التي تعود بالنفع على هؤلاء السكان. وأما هذه الهيئات مشروعات لا تكاد تقع تحت حصر، مثل مشروع زراعة الأراضي القاحلة في صحراء البرازيل وصحراء أفريقيا. ومشروع إعذاب ماء البحر، ومشروع إنشاء مدن يمتزج فيها التدفق الزراعي بالنشاط الصناعي ومشروعات تعدين النحاس والحديد والفوسفات والزنك والألمنيوم، حيث ملايين الأطنان من خامات هذه المعادن في غانا، ومشروعات إقامة مصانع عجينة الورق وألواح الأبلكاش في المكسيك وبرامج التشجير وزراعة المراعي في كولومبيا ومنشآت صهر الرصاص والزنك في بورما، ومعهد الصحة العامة في أفغانستان ومئات المشروعات في ماليزنا وعلى سفوح جبال الهملايا والهند ومنغوليا والباكستان وإيران وإنشاء معاهد التدريب والإرشاد. وثمة مشروعات مشابهة في كل أنحاء أفريقيا من المغرب إلى تنزانيا، وتقديم هيئة الأمم المتحدة مساعدات مالية وفنية لتنفيذ هذه المشروعات. ومع ذلك فإننا لا نضمن تنفيذ هذه المشروعات تنفيذاً سليماً فضلاً عن أن هجرة الفنيين من البلاد الفقيرة، يزيد الطين بلة. وذلك لأن تنفيذ هذه المشروعات يحتاج إلى تدريب بمئات الألوف من الفنيين الإشراف على التنفيذ السليم، فإن مشروعات التنمية "في أفريقيا تحتاج إلى نحو 250.000 كما تحتاج آسيا إلى 700.000 أما أمريكا اللاتينية فتحتاج إلى 450.000 فني"، وتلك هي قارات الجوع كما يسمونها.

إن التقدم العلمي والتكنولوجي هو العلاج الأمثل لهذه الحالة فالعالم هو الوسيلة الأولى والأخيرة لإنقاذ البشرية من هذه الكارثة المروعة التي توشك أن تحل به، فإن تخلف البعض يعوق تقدم الكل.

ثروات الأرض:

إن النشاط العلمي يتضاعف كل عشر سنوات، وأمامنا 12/1 فقط من مساحة الأرض هو المستغل في الزراعة وبقية مساحة الكوكب الأرضي محيطات وصحاري وجبال ولقد صنع علماء الإلكترونيات آلات تسمح وترى وتلمس على قدر من الكفاءة تفوق قدرة البشر ويقوم الحاسب الإلكتروني بعمليات حسابية تحتاج إلى سنوات لإتمام ثروات هذه البلاد المتقدمة عشرة أضعاف ما كانت عليه في خلال قرن من الزمان. ويستطيع كل بلد قام، أن يبدأ في مواجهة احتياجاته الاقتصادية الملحة، بأن يستقدم العلميين من الخارج. ولكنه لن يصبح مستقلاً بالفعل إلا عندما ينشئ رصيده الخاص من رجال العلم والفنيين والمؤهلين تأهيلاً عالياً، وتكون لديه المنشآت العلمية الخاصة به ولن يستطيع أي بلد محروم من رجال العلم والفنيين، إلا أن يبقى بعيداً عن تيار الحياة العصرية. وعلى كل بلد مستقل أن ينظم هيئة للباحثين خاصة به يكون مهمتها القيام بدراسة مختلف مظاهر طبيعة البلد وموارده الطبيعية.

ففي البلاد المتقدمة مثل أمريكا يوجد ألف عالم وخمسة آلاف مهندس لكل مليون نفس. وطبيعي أن يدخل في نطاق الطاقة العلمية والفنية، عدد المعاهد القومية للبحوث ومعداتها وإنتاج الأجهزة العلمية، ومراكز التوثيق العلمي والمطبوعات العلمية في اللغة القومية وينبغي أن نشير فوق ذلك إلى أن الأساس السليم مطلوب، فينبغي ألا تكون هناك أمية بل تمحي محوا وأن يكون مستوى التعليم العام عالياً، فإن الصلة وثيقة بين النهضة الاقتصادية وتعليم السكان، وبدون إعطاء أولوية مطلقة للتعليم في مستوياته المختلفة، لا يمكن أن تتحقق الآمال المعقودة على النهضة العلمية فعلى سكان العالم

الثالث أن يتبينوا تلك الحقائق وأن يعملوا جاهدين على رفع مستوى التعليم، وأن يعنوا العناية الكاملة بالبحث العلمي ومعاهده وهيئاته، وأن يعملوا على استغلال الموارد الطبيعية في بلادهم إلى أقصى حد، وذلك لمواجهة الطفرة السكانية.

إن التقدم العلمي والتكنولوجي قد جعل العامل الواحد في الولايات المتحدة يوفر الغذاء الأربعين فرداً على حين أن المحاصيل في العالم الثالث غير كافية حتى لمواجهة أسرة المزارع ومن سخرية القدر أن الفقراء لا يستطيعون الحصول إلا على أكثر الطاقات تكلفة. حيث ثمن السكر يفوق عشرين مرة ثمن الطاقة الكهربائية المعادلة، حتى لو صدرت من محطة توليد ذرية.

الحركة العلمية في صدر الإسلام

تنفرد المعرفة العلمية، من بين سائر الجهود الفكرية، من قيم وعقائد وفنـون، في أنها تراكمية، كصرح يزداد ارتفاعاً وسعة، بتعاقـب العصـور والأجيـال والأمـم، وفي أنها شاغل الناس، ورفيقة العقول في صـحوها ونضـجها. والمعرفـة العلميـة لا تخـص بعرق ولا لغة ولا ذوق، مهما حاول الأدعياء المغرورون أن يحصروها في عـرق معـين أو شعب محدد أو جينات مميزة. انها تنتقل في الناس من فئة إلى فئة ومن جيل إلى جيل، فتتناقلها الأمم، ويرثها كل جيل عمن سبقه، فيصحح ويصوب ويقـوم ويعـدل ويطور ويوسع، على قدر ما تسمح له حرية الفكر وسـعة التفكـير، وأحوالـه الأمنيـة والسياسية، وظروفه الاقتصادية والاجتماعية. فحيـثما حسـنت هـذه الأحـوال، صـح العزم ونشط الفكر، وأينع العلم وأثمر، وحيثما ساءت الأحـوال، فـترت الهمـم، وذبـل العلم واضمحل. وعندئذ تنتقل راية القيادة إلى أيد أحسن حالاً وأولى.

وفي القديم نما الفكر العلمي وأينع وأثمر في مصر وحوض الرافدين، حيث نشـأ وليداً فغذاه المصريون في العصور الفرعونية، وغذاه في حوض الرافـدين السـومريون والبابليون والأشوريون. وما حقق القطر أن مـن مبـادئ فكـر علمـي ورثـه الإغريـق فغربلوه وتحلوه، إما الزبد فذهب جفاء، وأما مـا رأوه صـوابا فنظمـوه، وبنـوا عليـه ومدوا فيه، ما وسعهم الجهد وسمح الزمان، طوال العصر المسمى بالهلنيستي، وذلك قبل أن يخضع الإغريق للحكم الروماني، وقد خضعت مصر ـ أيضـاً للحكـم الرومـاني. وأما حوض الرافدين فقد تناوب عليه حكم روماني وآخر فارسي.

وكان الرومـان رجـال دولـة وجنـود حـرب، وضـعوا قـوانين محكمـة، وربطـوا إمبراطوريتهم الواسعة بطرق برية مهمة، وطرق بحرية آمنة؛ ولكنهم لم يكونوا رجال علم. فقد حكموا بلاد اليونان سياسياً ولكنهم استسلموا لمفكريها ثقافياً وعلمياً. فحلّ ما يسميه المؤرخون العصر الهلنيستي.

وفي هذا العصر أستأنف الفكر الإغريقي نموه وتطوره، وفيه كانت الإسكندرية مركز الإشعاع الرئيسي، وفيها تأسست مكتبة كانت تضم أكثر نتاج الفكـر العـالمي، في رحاب هيكل وثني، في وقت كانت المسيحية فيـه تسري خفيـة وبحـذر. ثـم مـا أن تنصرت الدولة في الإسكندرية حتى أزالت كل معالم الوثنية الظـاهرة، ومنهـا الهيكـل والمكتبة. وبزوالهما اشتهر العصر ـ الهلينسـتي، وخـتم عـلى خـزائن الكتـب في العـالم البيزنطي، وانصرف الناس يزيدون الدين الجديد رسوخاً واستقراراً وشيوعاً وانتشاراً.

ومضت قرون توقف فيها، والعالم الـدنيوي ونسي ـ النـاس الكثـير مـن مبادئـه وأصوله، إلى أن انتشر الإسلام، فأحياه من جديد؛ فتحت خزائن ظلت عصوراً مغلقة، وصادر كل عارف بالإغريقية همه أن ينقل إلى العربية ذخائر هذا التراث. ونجم عن ذلك نهضة علمية عربية إسلامية، متكاملة شكلاً ومضموناً، حضـارية متطـورة فنيـة، فيها التجرد الذي لا ينأى بالمتعلم عن أرض الواقع، وفيها الواقع الـذي يـذكر المـتعلم بأن تعلمه فريضة يحبها الله لأنها تنفع الناس والإنسانية، وفيها التعلم الذي يستعيد ما سبق أن حققه الماضون من إبداع، كي يبني عليـه إبـداعاً جديـداً، ويزيـده تطـوراً وتطويراً.

ولكن ماذا جرى؟ ما الذي جعل الفكر العلمي ينـتعش مـن جديـد في رحـاب قوم كانوا بالأمس القريب أميين، على هامش الحياة السياسية العالمية؟

تأثير القرآن الكريم

لاشك أن أبرز الأسباب التي دعت إلى النهضة العلمية العربية الإسلامية، القرآن الكريم نفسه، إذ جعل الدليل على وجود الله بـديع صـنعه وعظـيم قدرتـه، وجعـل السبيل إلى تبني ذلك. النظر الفاحص المتقصي في هذا الكون العجيب ونظامه الرائـع الـدقيق، ممـثلاً في السـماء وإجرامهـا، وفي الأرض، جمادهـا وأحيائهـا، المرئيـة منهـا والدقيقة، وفيما ينتاب الأرض من تقلبات جوية، وفي الإنسان كامن قدراته، حتى وفي الآثار الماثلة للعيان والمطمورة في التراب، وفيما تشير إليه عـن حيـاة الماضـين. أضـف إلى ذلك ما تجد في القرآن الكريم من عناصر المنهج العلمي؛ كطلب الدليل، والتثبت بالمعاينة، وألا يقول المرء ما ليس له به علم أكيد.

آيات القرآن الكريم فتحت عقول الناس وقلـوبهم وأبصـارهم، ليعتـبروا. فقـام طلاب العلم يجرون تجـاربهم العلميـة، وسـموا عملهـم اعتبـاراً كـما نسـميه اليـوم اختباراً. وهو اعتبار قديم حديث. فعلماء القمة اليـوم يـدركون أن وراء هـذا العـالم المادي الذي تبلغه أدوات رصدهم ومجاهرهم وعقولهم وخيالاتهم، شيئاً لا يتعامـل مع المادة ولا تدركه الحواس فالروبوت (robot) الذي يسمى الإنسان الآلي يعمل مـا يعمل الجسم البشري، في حدود المادة، إلا أنه لا يتجاوز حدوده، في حـين أن الجسـم البشري يدرك ويقيم ويقدر ويتخيل ويتوقع، وتتملكه عواطف وأحاسـيس ومشـاعر ليس الروبوت منها في شيء. و قد مثل ذلك في الحاسوب الـذي يسـمى العقـل الآلي، وهو إنما يعمل بما رسم له، لا يعقل ولا يتفاعـل بـإرادة منـه ولا مبـادرة. لـذا يقـول علماء اليـوم أن مـن المكـابرة ألا نصـدق أن إلى جانـب العـالم المـادي عالمـاً روحانيـاً تتجاوب معه أحاسيس الأحياء، وألا نقر بأن هذا النظام العجيب الدقيق الذي ينظم الكون، كبيره ودقيقه، تسيره قوة ربانية، قائمة سرمدية، في كل زمان ومكان.

فتحت آيات القرآن الكريم بصيرة المسلم وبصره على ظاهر فيه ومن حوله، كان يمر منها ولا يعيرها التفاتاً وفتحت عقله على أمور بينت له من أن الخطأ أن يحكم على الظن أو أن يأخذ قراره من غير سند منطقي أو دليل مادي، أو أن يصدق بما لا تسنده بينه أو يؤيده برهان، وأن من الخطأ أيضاً، بل من الغباء أن يجادل فيما ليس له به علم، وأن يقول ما لا يعني أو يعني ما لا يقول. فصار المرء بعد الإسلام يتأمل في الكون الذي حوله، يفكر فيه، ويرى ذلك عباده إذ به يدرك عظمة الخالق وبديع صنعه.

السياسة الإسلامية العليا

لاشك أن للأوضاع الاجتماعية والسياسية في دولتي كسرى وقيصر ولأوضاع الرعية في ظلال حكم طبقي استبدادي يرى الناس سادة يملكون كل شيء وعبيداً ليس لهم شيء - لاشك أن لهذه الأوضاع تأثيراً مهد للفتح الإسلامي وساعد عليه، كما ساعد على انتشار العربية ورسوخ الإسلام.

إلى السطح وهذه الإمكانية تعود إلى منهجها وما أعطى أبناؤها من مبادئ وأفكار، فالإنسان المسلم خليفة لله في الأرض .. ".. إني جاعل في الأرض خليفة".

أمام الإنسان كمية من المعلومات التي لا تحاط والتي هو في حاجة إليها.. فبعد إنجازات "نيوتن" كلها سألوه ما رأيك فيما رأيت قال "نحن كالأطفال على شاطئ البحر، نلعب ببعض القواقع، أعجبنا بها".

فإن كان هذا هو الموقف الحضاري، فإن الحضارة الإسلامية بعلومها تملك أسباب هذا الوجود الحضاري المنتظر.

لقد كان هدف النبي صلى الله عليه وسلم وهدف خلفائه في صدر الإسلام خلق مجتمع متضافر تعمره مساواة مثالة، على اعتبار ليس في الإسلام عصبية ولا عشائرية ولا شعوبية ولا طائفية، ولا استثناءات ولا امتيازات، بل الكل بشر لهم

كرامة، ولهم حقوق، وعليهم واجبات، والكل أمام القانون سواء. كان من كرام الصحابة بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي. وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلمأن بعض العرب يعيب عليهم أنهم ليسوا عرباً، فنادى للصلاة، ولما اجتمع الناس وقف فيهم وقال: "يا أيها الناس! إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان". ومنذ بدأت الدعوة الإسلامية عمل على منع الرق. فجعل مكافأة تعليم العبد القراءة والكتابة: رد حريته إليه. وكان عمر يتساءل: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. ولما لم يكن بالإمكان إزالة نظام الرق بالمرة، كانت الخطوة الأولى تحريم استرقاق المسلم. إلا أن الرق ظل قروناً عرفاً قائماً إلى أن سنت أوروبا إلغاءه بعد العصور الإسلامية بقرون.

نادي الإسلام بحرية العبادة لأهل الكتاب، وحرية الرأي، والمعاملة بالحسنى، لا عنف ولا إكراه، وقد حرم القتل من قبل أن تبلغ الحضارة العالمية مستوى منقـي، إلا في حالة حرب معلنة. إلا أن المسلمين ما لبثت مشـاكل الحيـاة وتضـارب الأهـواء أن أيقظت فيهم نوازع جاهلية. ومن الأسف أن هذه النوازع ما تزال إلى اليوم تستفحل فتجعل عالم اليوم بصم الإسلام بوصمة العنف والإسلام منه براء. ولا ننسى أن ثمة من تظاهروا بالإسلام ليهدموه من الداخل، من هؤلاء أصحاب الحضارات العريقـة الـذي عز عليهم انتشاره وانتصاره.

هذه الأسباب مجتمعة: آيات القـرآن الكـريم التـي تخـص عـلى طلـب العلـم وتعلم المنهجية العلمية، والفتوحات الإسلامية الخاطفة التـي تبعـث إشـاعة العـدل والمساواة، والسياسة الإسلامية الصحيحة التي نشرت الأمـن والأمـان والمسـاواة. كـل ذلك أتاح للفكر أن ينطلق من عقاله فيؤتي علماً تليداً موروثاً وآخر طريفاً جديداً هو الميزة الكبرى للحضارة الإسلامية.

من أجل تكنولوجيا إسلامية

يمر المسلمون اليوم بفترة من أقسى فترات التحدي الحضاري في تاريخهم الطويل، ويبلغ هذا التحدي مداه في مجال العلوم والتكنولوجيا، حيث تخلفت البلدان الإسلامية تخلفاً ملحوظاً وتقدمت المعارف من حواليهم في هذين المجالين تقدماً مذهلاً خلال القرن الحالي بصفة عامة، وفي النصف الأخير منه بصفة خاصة، ممَّا ميز عصرنا بأنه عصر الصواريخ والفضاء وعصر الذرة والطاقة النووية، وعصر العقول الإلكترونية أو بصفة أعمّ عصر العلم والتكنولوجيا.

وهذه المجالات لم تدخلها معظم البلدان الإسلامية، أو دخلتها بجهود فردية محدودة لا تكاد تساير تقدم العالم من حواليها في ذلك، مما تسبب في وجود هوة شاسعة تفصل الدول الإسلامية عن الدول المتقدمة علمياً وتكنولوجياً.

قضية مصير:

فقضية العلم والتكنولوجيا والنهوض في شتى مجالات الحياة العصرية لم تعد بالنسبة للأمة الإسلامية مجرد تطلع لمستوى معيشة مرتفع. بل قضية بقاء أو فناء.. البقاء في حلبة الصراع الحضاري بين المنظومة المادية والمنظومة الإسلامية الإنسانية، أو الخروج نهائياً من المجتمع الإنساني والفناء في حضارة التفوق المادي.

ويظن البعض أن البناء من أجل التقدم مسألة دور ترغب بعض الشعوب في ممارسته، وتقلع شعوب أخرى عنه تعففاً ورفعه، علماً أن التقدم ليس

مسـألة دور، بـل هـو جـوهر الوجـود للمجتمـع، تتحـدد بوجـوده طبيعتـه المتقدمة المتطورة، إذ في توقـف الحركـة وجمـود التطلـع إلى الأفضـل يكـون - ذلـك المجتمع - متخلفاً، والإنسان لا تحصل حمايته وتحصينه، ولا يتم التأمين على وجوده كله إلا في حال تقدم مجتمعه.

أما أن نفهم التقدم بأنه نقل بعـض أسـاليب العمـل الاقتصـادي - السـياسي - الاجتماعي - الأجنبية لمجرد نجاحها في بلد المنشأ، والسير على نهجهـا في بلادنـا، فهـو ضلال ليست بعده ضلال، لأنه لكل مجتمع آلياته المحركة النابعة من تاريخـه ومـما يسوده من أفكار وثقافة وقيم.

واليوم نرى كل آلات الدول الكبرى وأحدث مصنوعاتها تباع في أسواق البلـدان الإسلامية، والسؤال لماذا لم تنتج هذه الآلات الحديثة حركة تقدم تكنولوجي موازي؟

الإسلام... وقانون التغيير

تفرض سنة الوجود ومسيرة البشرية نحو التقدم على من يريد أن يشارك فيها، أن يقوم بدوره الحيوي وفق نواميس الحياة ببناء حضـارته الخاصـة، والحفـاظ عـلى استمرار عملية التغيير نحو التقدم في كل الحقب. فالكون حيّ بما أودع فيـه الله مـن قواعد الحركة ومراحل النمو، والمطلوب من الإنسان والمجتمع أن يكون وفق قاعـدة الحركة الدائمة هذه، أما التوقف والجمـود وتعطيـل سـنن الله في التغيـير فهـما ضـد منطق سنة الله في خلقه، وهما تعطيل الدور التعميري للإنساني في الأرض، قال تعالى: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)(فاطر:43).

وكون العرب والمسلمين قد قدموا للإنسانية دوراً بالغ الأهمية في حقب زمنيـة ماضية، فهذا لا يعفيهم من مسؤوليتهم اليوم، فالتكليف الإسلامي مطلق غـير مقيـد بزمان أو مكان، بل مهمة ملازمة للوجود نفسه، وإذا كان

التخلي عن الدور قد أوقف العطاء، فحصل التفوق التكنولوجي في حضارة الغرب، فإن العودة إلى الريادة تكون بالبناء المخطط المدروس المحكوم بفكر ذاتي متحرر من إرادة الأجنبي وتأثيراته، وليس بدفع الأموال لشراء منتوجات التكنولوجيا الأجنبية، لأن هذه المواد مهما كثرت لن تحدث نقلة نوعية إن لم يكن المنطلق هو التغيير الذاتي مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد:11).

هذه الآية الكريمة هي الحكم الفصل، خاصة وأن علينا أن نبدع تكنولوجياً، أي أن نبني لا أن نكدس، فالبناء الذاتي الواعي وحده هو الذي يأتي بالتقدم، ولنا في أمم معاصرة أسوة. اليابان مثلاً، والتي دفعت ثمن ضعفها بأن تحطمت على أيدي الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ثم واجهت قضية الدخول إلى ميدان النهضة التكنولوجية. وكانت مضطرة للاستمرار في علاقاتها مع أمريكا، وبعد تحديد المنهجية وتغيير الحالة النفسية التي عليها الشعب، استخدمت اليابان هذا الاضطراب بأن حاولت النهوض بتعليمها وصناعاتها إلى أعلى المستويات، ولم تنظر إلى الدولارات الأمريكية المتدفقة عليها أنها وسيلة لشراء الترف من الخارج.

بل سخرت كل قوى البلاد للنهوض بالعلوم والتكنولوجيا. وقد استغرق تنفيذ هذه الخطة عشرين سنة في اليابان، حول فيها اليابانيون بلادهم إلى اليابان جديدة تختلف اختلافاً جذرياً عن التي دمرتها القنابل الأمريكية. فإمكانات اليابان اليوم تتحدى أمريكا نفسها، والمراقبون الذين كانوا قد أصدروا وثيقة الموت لليابان قبل ربع قرن فقط، يتنبأون اليوم بأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن اليابان، مثلما اقترن هذا القرن بأمريكا وقد بدأت الصحف الأمريكية تنشر مقالات تتساءل فيها: كيف نواجه الحملة اليابانية التكنولوجية والتجارية؟

أما العالم الإسلامي فقد حصل على السنوات العشرين نفسها التي حصلت عليها اليابان، ولكن النهضة التكنولوجية في العالم الإسلامي لا تعني سوى استيراد سيارات الغرب وطائراته وتزيين أسواقنا وبيوتنا بمواد مستوردة، ولازلنا نصر على المضي على هذا المنوال حتى ولو أصبح الاقتصاد الوطني مرهوناً لدى الأعداء.

ونحن نتساءل هنا: أليس في قدرة الأمة العربية الإسلامية، إذا أحسنت الاستفادة من إمكانياتها البشرية والجغرافية والمادية المتنوعة، ووحدت كلمتها في سائر مجالات الحياة، أن تلعب دوراً رئيسياً في التغيير المنشود للعالم، وديننا يدعونا دوماً إلى التغيير والتطلع إلى الأفضل؟

إن تأكيد الإسلام على قانون التغيير يعني أن يمنح الإرادة البشرية المؤمنة فرصتها في صياغة المصير، في التثبت به أو استعادته إذا ما أفلت من بين يديها... ومن ثم فإنه ما أن تتهيأ هذه الإرادة للعمل عن طريق الشحذ النفسي والاستعداد الروحي والعقلي والأخلاقي والمادي، حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات من أي نوع كانت، وبأي درجة جاءت، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان.

لقد فهم كثير من المسلمين، ذوي النوايا الصادقة، عملية التغيير نحو التقدم التكنولوجي فهماً خاطئاً، وتصوروها مجرد انفعال عام روحي أو إعادة التزام بحشد من القيم الخلقية أو السلوكية التي دعا إليها الإسلام. وليس ثمة ما يقف في طرق امتلاك خاصية التغيير كالرؤية التجزيئية، ذلك أن التغيير عملية شاملة تغطي الطاقات البشرية كافة: روحية، عقلية، سلوكية، جسدية،... وأي تجزيء في الرؤية أو الموقف يقتل المحاولة في المهد. ولكننا بتأكيدنا على التغيير الروحي والنفسي إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار دوماً سلم الأولويات، فتبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية. ويبقى التغيير

الذاتي بمفهومه الشامل، وبوضعيته المركبة وجهده المتعدد... لهـو المفتـاح الأول لابد منه للتحقيق.

سبيل التقدم التكنولوجي:

قلنا إن التقدم ضروري للعرب والمسلمين، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتغيير الـذاتي للإنسان، هذا الكائن الحي الذي يلعب دور المحرك لعجلة التقـدم إذا كـان جـاداً في نظرية التغيرية رافضاً للوصاية والنهب، كما يمكن لهذا الإنسان أن يؤدي دور المحيط لأية عملية تقدم إذا كان يعيش وفي نفسه عقده نقص تجاه الأجنبي.

فمشكلة التقدم عامة والتكنولوجي خاصـة يبـدأ حلّهـا السـليم بإعـادة الثقـة بالنفس للإنسان والمجتمع، فضمانة استمرار التقدم هو الإنسان بما يقـدم مـن جهـد وعمل.

إن اسـتيراد المصـانع والآلات المتعـددة والخـبراء الأجانـب عمليـة ممكنـة ولا تعترضها مصاعب وعقبات إذا ما توفرت الأموال، ولكن الأمر الأكثر صعوبة هـو بنـاء الإنسان بناءً مجدداً مؤسساً على قواعد التوازن بين المادة والروح، وبين أداء الواجـب والمطالبة بالحق.

فسلم الأولويات يتطلب أن نتناول المشكلة التكنولوجيـة في الـوطن الإسـلامي من أساسها، أي ابتداء من عناصرها النفسية وفي هذا المستوى يكـون حلهـا منحصراً في تكوين وعي حضاري إسلامي بكل مـا يسـتتبعه في التكـوين الشخصي للفـرد وفي عاداته، وفي نسق نشاطه، وفي مواقفه أمام التحديات الاجتماعية المطروحة أمامه.

والسؤال كيف تساق الشعوب إلى عبور هذا الطريق لتحقيق التقدم التكنولوجي؟

إن نجاح أي خطة اقتصادية أو اجتماعية يكون بعد نشرها على كافة المستويات وشرحها والتوعية بأهميتها، حتى تستقطب أكبر قاعدة جماهيرية

ممكنة للإسهام في تنفيذها. وفي هذه الحالة لابد من تكييف الذات البشرية مع مقتضيات هذه الخطة فكراً ونشاطاً وموافقاً.

والعملية بمعنى أوضح هي تعليم الفرد وتربيته وفق ثقافة تعلمه كيف يتصرف في مواجهة الحياة العملية، حتى تخف نسبة الأخطاء وتنجح عملية البناء. فالعلم هو المحرك الأساسي للتقدم الواعي، واقتحام حلبات العلوم الحديثة وتطبيقاتها، والأخذ بأسبابها وتطويعها لخدمة التنمية الشاملة. وسبيل الدول الإسلامية فرادى متفرقة إلى هذه الآمال عسيرة، وسبيلها إليه مجتمعة متعاونة ميسرة بإذن الله.

إننا ندرك جميعاً أن اللحاق بركب التفوق التكنولوجي هو سبيل أمتنا للبقاء والنماء والاستقلال الشامل، لذلك لابد من زيادة الاهتمام بتنمية التعليم وترقيته، فإن من السمات البارزة لهذا العصر الاعتماد المتزايد على العلم وتطبيقاته في معالجة قضايا التنمية الشاملة والاستغلال الرشيد لمصادر الثروات الطبيعية.

لقد أهمل عنصر التكنولوجيا في الوطن العربي والإسلامي بالرغم من امتلاكنا لأهم عناصر إنجاحها. فنحن نمتلك توافر رأس المال لبعث مراكز البحوث المهمة، ونمتلك المواد الخام لتصنيعها مع وجود الوسائل المساعدة كالطاقة وسوق التوزيع إلى جانب الكفاءات الفنية والإدارية القادرة إلى التخطيط والتصميم، والتي يوجد معظمها للأسف الشديد في بلاد الغرب.

ولئن انتبهت بعض دول العالم الثالث إلى أهمية هذا الجانب فأدمجت التكنولوجيا ضمن برامجها التنموية وسياستها الاقتصادية.

فالبرازيل مثلاً، أصبحت تصدر طائراتها ودباباتها إلى الوطن العربي، كما تفوقت كوريا في مجال التكنولوجيا الخفيفة، فإن البلدان الإسلامية لا تزال تنظر إلى التكنولوجيا نظرة ثانوية فيها كثير من عدم المبالاة، رغم الخطوات التي بدأت تظهر في أرجاء الوطن الإسلامي، في حين أننا نقدر على

الدخول إلى ميدان التصنيع والتقنية الحديثة والنجاح فيها بتفوق متسلحين بمبادئ ديننا الحنيف وقيمنا الأصيلة وتراثنا الإسلامي العظيم.

العلم والتكنولوجيا في الإسلام

من الحقائق التاريخية البارزة في تاريخ الإسلام أن التعليم كان منذ البداية ركناً مهماً من أركان الحضارة الإسلامية. ولاشك أن ما تضمنه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من حث المؤمنين على طلب العلم من المهد إلى اللحد، دفع المسلمين إلى التعلق بالعلم ومختلف تطبيقاته العملية وضبط المناهج التعليمية المتطورة.

ويكفي ان نذكر أن أول ما نزل من الذكر الحكيم يقرر قيمة القراءة والكتابة، قال تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم) (العلق 1-5).

أما أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم- فهي كثيرة أذكر منها قوله: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بخظ وافر" (رواه أبو داود والترمذي - رياض الصالحين).

وفي مجال العلوم نجد القرآن الكريم يطرح حشداً من الحقائق والكشوف العلمية في شتى الميادين - الفلك - الفيزياء - الطبيعة - الطب... ، جاءت معطيات العلم الحديث لكي تؤكدها وتزيدها إيضاحاً.

أما التطبيقات التكنولوجية فإن للقرآن كلمته فيها، وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى.. إذا ما علاقة كتاب الله بالتكنولوجيا وهي نتاج يتميز بالحداثة والمعاصرة، ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا أن القرآن الكريم أشار

إليها صراحة وفي أكثر من موضع، كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ...) (سبأ:10-12) إن الله سبحانه وتعالى سخر قوى الطبيعة الهائلة التي لا يجدها جدار زماني أو حاجز مكاني لعبدية المصطفين داود وسليمان (ع)، سخرها جميعاً لكي تعمل تحت امرة الإنسان، الجياد، الجبال، الحديد، الريح، القطر (النفط).. في عدد مشار إليه من مساحات العمل التقني التطبيقي صناعة وعمراناً.. وإشارة القرآن للتقنية والصناعة واضحة فالله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب لداود، ولكنه علمه كيف يلينه إذ بدون هذا لن تكون ثمة فائدة صناعية لهذا الخام الهام.

أسلمة التكنولوجيا:

إن التكنولوجيا الإسلامية ترتبط بخلفيتها الإيمانية وتنضبط على هدي القيم الدينية والإنسانية القادمة من عند الله، لتكون حقاً في خدمة الإنسان الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر والأنانية والنهب.

نعود إلى الآية في سورة الحديد، وهناك يجب أن نلتفت إلى ذلك التداخل والارتباط الصميمين بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم وإقامة الموازين لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في آياته البأس، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله من ينصره بالغيب.

إنه العبد الغيبي في التكنولوجيا الإسلامية. إنها عقيدة الإسلام التي تشد الإنسان إلى أعماق الأرض بعمارتها وحماية الحق فيها، وتربطه ارتباطاً دائماً بحركة الجهاد لحماية الموازين العادلة. وأنه بدون الاعتماد الواعي المسؤول على مصادر القوة والبأس فلن يكون هناك نصر ولا تقدم ولا حماية للموازين العادلة التي جاء الدين لتنفيذها في الأرض.

إن الدعوة لقيام تكنولوجيا إسلامية هي في الحقيقة استمرار طبيعي لموقف الإسلام الرائد من معطيات العلم في آفاقه، واستكمال للدعوة إلى إعادة صياغة الإنسان المسلم من أجل أن يكون أكثر قدرة على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها من التفكك والعدوان.

إذن يتمثل الطريق الأول لأسلمة التكنولوجيا في امتلاك المسلمين لناحية العلم استيعاباً وإبداعاً وابتكاراً. إن على الفرد المسلم اليوم أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كشف عنها النقاب، والقوانين العلمية التي تحيل المادة الخام إلى حركة وفعل وإبداع، وان يمسك بزمام الوقت قبل أن يقطع رقبته "فالوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك".. وإنه لطريق طويل شاق يتطلب تكثيف جميع الإمكانات المتوفرة في العالم الإسلامي.

وفي هذا المجال لا ننسى أن الغرب كذلك في تطور مستمر، وسيكون قد دخل ما يسمى بـ "العصر ما فوق التكنولوجي" حين نكون وصلنا إلى ما وصل الغرب إليه اليوم. وفي يقيني أن أقرب طريق لأسلمة التكنولوجيا - الطريق الثاني - وتخليصها من خصائص النهب والدمار والأنانية في هذا العالم، يمر بالدعوة وتبليغ كلمة الله إلى الشرق والغرب سواء أن التاريخ قد أتاح للعالم الإسلامي إمكاناً جديداً، فالدراسات الحديثة للعالم المعاصر تدلنا على أن فيضان النهضة المادية قد وصل إلى آخر مداه، وأنها غير قادرة على إعطاء السكينة والاطمئنان لقلب الإنسان. إن الدين ينهض اليوم في روسيا، وحركات الشباب في الغرب فوضوية نتيجة لانعدام الطمأنينة، يطلق شباب اليابان اسم "ثقافة التجار" على ثقافتهم التي لا تمثل سوى جزء من حاجات الوجود البشري. إن داء القلق وانعدام الثقة قد غزا الجيل الجديد في العالم كله. إنها فرصة ذهبية لحاملي دين الفطرة لإرواء عطش العالم ولإظهار دين الله، عند ذلك ستسلم التكنولوجيا أمرها لرب العالمين.

إن الطريق الذي كشفه الغرب هو طريق الفتح بالحديد والنار في آخر صوره، ولكن طريق الإسلام هو فتح الإنسان، والحديد والنار ومنتجات التكنولوجيا عامة تستسلم تلقائياً حين يستسلم صاحبها.

إن قافلة الأمة الإسلامية اليوم تبحث عن مستقبلها بمختلف الطرق، ولكن العجيب أنها لم تسلك بعد طرق الدعوة العالمية الشاملة.

إن المستقبل الذي تبحث عنه الأمة الإسلامية لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق العلم والدعوة، فهل من مستجيب؟؟

العلم والنوايا الطيبة

الابتعاد عن "التفكير العلمي" في التعامل مع القضايا الأساسية التي تؤثر على مصير الفرد والمجتمع يمكن أن يكون بالغ الضرر. والتبشير بعواقب كارثة "الإحماء العالمي" مثال مهم على الخلط بين التحكيم العلمي والقلق الغيبي.

لقد كان الاهتمام كثيراً في الآونة الأخيرة بقضية ألا وهي أزمة انحسار "التفكير العلمي" في الثقافة العربية المعاصرة. والتفكير العلمي الذي أشير إليه ينبغي ألا يفهم في إطاره الضيق كمنهج وأسلوب يستخدمه العلماء والباحثون لإجراء التجارب في مختبرات التدريس والبحوث الجامعية أو للاستدلال من أجل اكتشاف حقائق علمية جديدة أو استنباط تطبيقات جديدة لتفسير الظواهر الطبيعية الجديدة، وإن كان ذلك أساسه. بل أن ما أقصد بالتفكير العلمي ما عرّفه الدكتور فؤاد زكريا في كتابه الشهير "التفكير العلمي" بأنه "ذلك النوع من التفكير المنظم الذي يمكن أن نستخدمه في شؤون حياتنا اليومية، أو في النشاط الذي نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة، أو في علاقتنا مع الناس ومع العالم المحيط بنا".

والتفكير العلمي له جذوره في حضارات الشرق القديمة ومن ثم في الحضارات اليونانية والرومانية، وبدأ ينمو وتتضح بعض معالمه مع ازدهار الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، وتبلورت ركائزه وأساليبه مع بزوغ النهضة الأوروبية الحديثة، إلى أن استتب على ما نعرفه عليه الآن، يمارسه العلماء والباحثون في عملهم العلمي، ويمارسه الفرد، أحياناً عن وعي وأحياناً أخرى دون وعي، كمنهج وأسلوب في عمله اليومي وفي تصديه لأمور حياته المعيشية وفي تعامله وعلاقاته مع الآخرين ومع الطبيعة. وكلما استطاع الإنسان أن يستخدم الفكر والمنهج العلمي بالتزام وانتظام كلما عظم من المنافع وازدادت سعادته في أمور حياته المادية المعيشية منها والمهنية.

ومع أن التفكير العلمي كما أسلفنا هو أمر مرغوب ومفيد دائماً، إلا أننا نادراً ما نجد من هو قادر على الالتزام بممارسة التفكير العلمي كل الأوقات وفي جميع الأمور. إذ نحن كثيراً ما نلجأ إلى اتباع منهج "الحدس" أو الإلهام، وخاصة لدى قيامنا بالأعمال الفنية والأدبية أو في علاقتنا الشخصية أو العائلية، وهذا لا ضرر منه بل هو مفيد ويكاد يكون البديل الوحيد في معالجتنا هذه الأمور الفنية والأدبية. ولا ضرر كذلك من التعامل مع بعض الأمور المادية الصغيرة دون الالتزام الكامل بأسلوب التفكير العلمي، فكلنا بشر، لنا عواطفنا التي تسيرنا ونسر من انقياد نالها، أحياناً عن وعي وكثيراً من دون وعي كما أن لنا احتياجاتنا "الروحية" التي لازلنا نجهل كنهها ولا نملك تفسيراً لها، بل إننا نحتاج من حين لآخر إلى فترات استراحة من عناء جهد وقيود التفكير العلمي المنتظم.

إلا أنه من الخطورة بمكان ومما يلحق بالغ الضرر بنا أن نبتعد عن التفكير العلمي وبجانبه في تعاملنا مع القضايا الأساسية التي تؤثر على الجوانب المادية من مصالح الفرد أو المجتمع.

ومما يؤسف له أننا ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، فإن الكثير من أفراد المجتمع وخاصة في مجتمعنا العربي (البعض عن عدم دراية، والبعض الآخر عن كسل، وبعض آخر عن عمد) يتعامل مع القضايا المادية الهامة في الحياة بأسلوب بعيد كل البعد عن التفكير والمنهج العلميين.

ولعل المأساة، الفرد والمجتمع ككل، أن يكثر عدد الذين يتعاملون في كثير من أمور حياتهم الدنيا بأسلوب غيبي أو أقل مما يوصف به أنه غير علمي وغير مسنود. ولئن كان يمكن تبرير ذلك بعدم دراية عامة الناس الدقيقة بالتفكير والمنهج العلميين، فإن الطامة الكبرى أن بعض العلماء الذين تعلموا التفكير العلمي ومارسوه في عملهم التخصصي الدقيق، يعالج بعض قضاياهم وأمورهم المادية الهامة دون الالتزام الدقيق بأسلوب ومنهج التفكير العلمي. والمأساة تكون أشد حين يتناسى بعض العلماء أحياناً أو يغفل الركائز الأساسية للتفكير العلمي والمنهج العلمي في معالجتهم بعض القضايا التي تكون، أو التي يفترض أن تكون، في صلب عملهم العلمي. وهذه المنزلقات تعم من الأسف مجتمعنا العربي المعاصر وأن كانت لا تقتصر عليه، بلا نلاحظ بعض هذه الظواهر أيضاً في المجتمعات الأخرى وحتى في مجتمعات الدول المتقدمة، وإن كان ذلك بدرجات أقل كثيراً مما هو سائد عندنا.

ولعل من أخطر الأمور على الفرد والمجتمع أن نحكم على الظواهر والمشاهدات الطبيعية التي نتبينها حديثاً دون استخدام التفكير العلمي المنضبط في تحليلها واستنباط الاستنتاجات لها، كأن نستنتج من بعض القياسات الجديدة نظريات ذات تنبؤات خطيرة دون التحقق من القياسات ودقتها والظروف المحيطة بها ودون أن نخضع الاستنتاجات الأولية إلى التحليل العلمي لنتبين مدى توافقها مع ما نعلم أنه حقيقة ثابتة، ودون أن نخضع التنبؤات المروعة لهذه النظريات لتحدى القياس والمطابقة من جديد، ودون أن نبين حدود هذه الاستنتاجات الزمانية والمكانية والبيئية. والمؤسف له أن

الـدوافع غالبـاً مـا تكـون نبيلـة المقصـد، مـما يـؤمن للنظريـة الجديـدة والاستنباطات والتنبؤات المنبثقة عنها التأييد والتعاطف الشعبي العـام. غـير أن نبـل المقصد لا يغني بتاتاً عن الالتـزام بجميـع ركـائز وأدوات التفكـير العلمـي في تحليـل المشاهدات واستنباط الاستنتاجات، وكـما تقـول الحكمـة القديمـة "بـأن الطريـق إلى جهنم مفروش بالنوايا الطيبة" فكذلك طريق الهلاك يسلكه كثـير مـن ذوي المقاصـد والغايات النبيلة.

وكمثال على المعالجة العلمية الرصينة والموضوعية لمثل هذه القضايا المسـتجدة التي تهم المجتمع البشري بأسره. والمقال يعالج مسألة هامة ألا وهـي نبـوءة "الاحـماء العالمي Global Warming" والتي ملخصها أن النشاطات الإنسانية في الآونة الأخـيرة قد زادت من تأثيراتها الضارة على البيئـة بشـكل كبـير. وعـلى وجـه الخصـوص، أن مـا يطلقــه الإنســان مــن غــازات في الجــو في المصــانع والمركبــات وغيرهــا مــن الأدوات والنشاطات قد أدى إلى ارتفاع غير طبيعـي في درجـة حـرارة الأرض، وأن هـذا الارتفـاع سيستمر في الازدياد خلال حقبة قصيرة مـن الـزمن، وسـيؤدي ذلـك إلى خـراب ودمـار شامل لكوكب الأرض ما لم نتدارك ذلك تواً وحالاً.

ومن المهم أن نؤكد هنا أن القياسات المباشرة وغير المباشرة الدقيقة التـي قـام بها العلماء على مدى قرن أو أكثر، تبني بلا جدال أن تركيز غاز ثاني أوكسيد الكربون وبعض الغازات الأخرى يزداد في الجو عـلى نحـو متسـارع (أسي) في العقـود الأخـيرة وذلك نتيجة الزيادة الموازية في معدل إنتاج هذه الغازات، غير أن هذا التركيـز الـذي يتسبب فيه الإنسان بالنسبة لثاني أكسيد الكربون يبقى أقل بكثـير مـن ذلـك الـذي يعود إلى المصادر الطبيعية الأخرى من هذا الغاز. والعلاقات التي تحكم النتائج التي يمكن ان تترتب على هذه الزيادة معقدة ومتداخلة، ولم يستطع العلـماء والبـاحثون التوصل بعد إلى حكم علمي قاطع ومسنود بشأنها.

العرب والتكنولوجيا

يتصور البعض أن التقانة هي وليدة القرن العشرين والواقع يشير إلى أن التقانة بمعنى الإتقان والدراسة وتطبيق المعرفة، قديمة جداً وقد ساهمت مساهمة أساسية في بناء وازدهار الحضارة في وادي الرافدين ووادي النيل واليمن منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، فالتقانة هي نتاج سنين عديدة من تطور الخبرة والدراية والمعرفة وهي تستند على قاعدة واسعة من العلم النظري والتطبيقي وهي ليست سلع تجارية تباع وتشترى بمجرد توفر الرغبة والمال، بل توجد لها متطلبات اجتماعية منها على سبيل المثال توفر الأطر المؤهلة للاستيعاب والهضم والقدرة على البحث والتطوير والإدارة المواكبة. إن العمل والتقانة هما القوتان الغالبتان في رسم معالم العالم الحديث، وهما ليسا منتوجين بلا هوية ولا جذور اجتماعية حضارية، إنهما يتجسدان في المعرفة والدراية وفي القيم والسلوك الإنساني وفي تنظيم الإنتاجية يتجسدان وفي مناهج الدولة وإجراءاتها وسياساتها وخططها. لقد كانت البلدان العربية خلال القرون الخمسة الماضية في سبات، بعد قرون كانت فيها مركز الإشعاع العلمي والتقاني في العالم. أما الآن فالهوة العلمية والتقانية بين العرب والعالم الصناعي كبيرة، وإذا لم نسرع الخطى في ردم هذه الهوة فالإشارات إلى مستقبل العرب الثقافي والاقتصادي والسياسي ليست واعدة، هذا هو التحدي الذي يمثله الوضع الراهن إذا لم يعد ممكنا لحضارة ما أن تنتظر يوماً أفضل من سابقه فقوى العلم والتقانة تمحو مجتمعات وثقافات بأكملها ويتم التنافس حالياً بين القوى والضعيف ضمن الدول المتقدمة نفسها.

يمكن تعريف التقانة، بأنها منظومة متكاملة تعتمد العلم والمهارة لإنتاج سلعة أو خدمة ذات مردود اقتصادي، أما القوة الدافعة وراء نجاح التقانة فهي المردود الاقتصادي، والعلم والمعرفة والمهارة هي الأدوات التي تقود إلى إنتاج المنافس. إن التقانة باستحداثها ونقلها، تعني وسائل إنتاج جديدة وعقلية جديدة ومفاهيم جديدة وعلاقات إنتاج جديدة خاصة في المجتمعات النامية، لذا فإن كل وحدة تقانية تمثل الأطروحة المضادة لجزء من القيم والسلوكيات أو المفاهيم العقلية أو العلاقات الإنتاجية السائدة، والتقانة في ذلك ظاهرة اجتماعية تعني المجتمع بأكمله وهنا تبرز أهمية اتخاذ القرار السياسي والتربوي والتشريعي والمالي لدعم الأطروحة المضادة المتمثلة بالتقانة الوافدة. وبدون اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب يضعف التفاعل وثقل حركته وتتحول التقانة المستوردة إى قشرة قابلة للتساقط عند ظهور أي أزمة جدية. ومعلوم أن المجتمعات الرائدة في التقدم العلمي والثقافي هي أكثر قدرة على تكييف تطبيقاتها وفق ثقافتها وأرثها الحضاري، بينما المجتمعات التي تنقل الثقافة من خلال قاعدة "تسليم المفتاح" تفرض على نفسها، من دون دراية، المبادئ الحضارية المتعلقة بالتقدم الثقافي الذي حصل في مكان آخر. إن الذي قاد إلى المعجزة العسكرية اليابانية في النصف الأول من القرن العشرين والمعجزة الاقتصادية في النصف الثاني منه هو وجود سياسة تقانية طويلة المدى لدى اليابانيين موضوعة بالاستناد إلى خصائص الشعب الياباني واستغلال الإيجابيات بأقصى حد ممكن وتقليص السلبيات كلما أمكن ذلك.

لقد وقفت اليابان موقف التلميذ من الحضارة الغربية ووقف العرب موقف الزبون، فقد استوردت اليابان المعارف والدراية واستورد العرب الأشياء الاستهلاكية المصنعة في الغرب بوجه خاص، وقد فاوض اليابانيون مصدري التقانة من خلال وزارة التجارة والصناعة الخارجية المعروفة باسم (ميتي MIT) بشكل موحد وكفوء ودخل العرب أسواق الغرب مشتين. تعتمد (ميتي)

أسلوب التشاور وإشراك القطاعات ذات العلاقة إذ تعتمد الخطة الموضوعة على انتقاء التقانة المناسبة في الوقت المناسب، وتضم (ميتي) 33 لجنة استشارية مشتركة باختصاصات متنوعة لاختيار التقانة، وعند وقوع الاختيار على تقانة معينة تتولى الوزارة المفاوضات للحصول عليها. ولخبرة (ميتي) في موضوع التفاوض ووجود الخبرات الاستشارية الرصينة إلى جانبها فإنها، أي (ميتي) تتمكن من الحصول على التقانة المطلوبة بأفضل الأسعار والشروط التي تتضمن في أغلب الحالات إمكانية استغلالها من قبل عدد من الشركات اليابانية وليس شركة واحدة. وبعد الحصول على التقانة المرغوبة تقوم (ميتي) بتحفيز إدخالها مستعملة الإعفاءات الجمركية والقروض الميسرة والمساعدة في إيجاد الأسواق الخارجية وغيرها.

تعلمت اليابان من التجربة الغربية من التطور ولكن سرعان ما اكتشفت أن الطريقة الغربية في الطور النسبي بطيئة فأخذت على عاتقها تأسيس مدرسة جديدة اعتمدت على الهندسة العكسية وذلك بتفكيك الأجهزة والمصانع إلى أجزائها ومكوناتها الهندسية العكسية وذلك بتفكيك الأجهزة والمصانع إلى أجزائها ومكوناتها الأساسية وقلدتها، لكنها لم تقف عند هذا الحد وإنما أخذت تطور جهازها التعليمي وفق أسس مدروسة تناسب مجتمع اليابان حيث أدركت أن التقليد سيبقيها متخلفة عن الغرب وأدركت أهمية مؤسسات البحث العلمي والتطوير ومردوداته الاقتصادية الكبيرة. لقد ركزت اليابان على البحوث التطبيقية وتسجيل براءات الاختراع في بداية نهضتها العلمية والتقانية، وبعد أن قطعت شوطاً في التقدم التقاني أعادت النظر في استراتيجيتها ومشاريعها العلمية وأولت البحوث على الغرب في عدد من الميادين من بينها طرق إدارتها للإنتاج. قال أحد مفكري اليابان في القرن الثامن عشر "انظر الأشياء جيداً واحفظها ولا أمسها" والمهم هنا ليس لماذا

تستغل الآلة لكن كيف تشتغل. واليابان لم تنتج صناعة آلية أساسها الفكر المادي و "الأنا" لأن ذلك ليس من روح الثقافة المحلية.

ما تزال التقانة في الأقطار العربية غير متولدة في البيئة الوطنية وتحمل طابع الاغتراب الذي يحمل في ثناياها خطر فشل الوحدات التقانية في تحقيق الغايات المرجوة منها. كما إن التقانة المنقولة من الخارج لا تحل مشكلة الدولة المتخلفة لأن التقانة المستوردة مهما كانت متقدمة ومهما كانت كثيرة فإنها ضعيفة أمام القوى والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية السائدة في المجتمع، وما لم تتدخل الدولة بجهد متميز ووفق خطط مدروسة وإجراءات وسياسات رصينة تذهب التقانة هباءً عند أول أزمة.

لكي يستورد أي بلد التقانة بشروطه عليه أن يوفر الآتي:

- امتلاك الإرادة السياسية المستقلة.
- توفر أطر وطنية قادرة على استيعاب التقانة المنقولة وتشغيلها وتطويرها وصيانتها دون الاستمرار بالاعتماد على الجهة المصدرة لهذه التقانة.

ولكي يتم نقل ناجح للتقانة وتوطينها فإن العناصر الآتية ضرورية، ولكنها ليست كافية لاستمرار نموها وازدهارها:

- المهارة المناسبة.
- القوى العاملة وفق هرم مهني مقبول وثقة بالنفس في قضايا التشغيل والصيانة والتطوير والبناء الجديد.
- السياسات العلمية والتقانية الواضحة والتخطيط السليم.
- التنظيم.
- الإدارة وبضمنها توفر القيادات الميدانية التي تتحمل المسؤولية وتتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

- العلماء والباحثون والمبتكرون ومؤسسات بحث وتطوير وجامعات ومعاهد تقنية نشيطة.
- استمرار الأطر المهنية والتقنية في مواكبة التطورات في حقل الاختصاص من خلال برامج نشيطة للتعليم المستمر والتدريب المبرمج.
- التحفيز المناسب للعاملين والمبدعين والمبتكرين.

يمكن النظر إلى التنمية على أنها عملية نهوض حضاري ينسحب على جميع نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، ويعتبر التخطيط العلمي أداة التنمية الشاملة. كما أن رسم سياسات التنمية ووضع الأهداف وتحديد الأولويات وفق إمكانات البلد المالية تقع ضمن المقررات السياسية التي يتخذها القائد على أعلى مستوى حكومي. وإذا نظرنا إلى الوطن العربي كمجموعة من الإمكانات القابلة للتماسك والترابط بحيث تكون وحدة من الإمكانات المتكاملة يواجهها خياران أساسيان هما:

- تصميم برامج وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ضوء الاحتياجات تضمن حداً أدنى من الغذاء والسكن والعناية الصحية والأمن الوطني والقومي في إطار استراتيجية واضحة ومحددة.
- تصميم برامج وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ضوء الإمكانات الظاهرية المتاحة التي تهدف إلى تفجير الإمكانات الذاتية غير المتطورة.

إن الخيار الأول أكثر إغراءاً وأكثر تجاوباً مع طموحات الأفراد والمنظمات والقيادات السياسية. وإن النظام الاقتصادي العالمي الحالي وفلسفة الاستثمار التي تبلورت بعد الحرب العالمية الثانية تجعل الكثير من الدول النامية الفقيرة تنزلق إلى جزيئات الخيار الأول دون تبني استراتيجية وطنية مما يؤدي إلى إهدار جهود التنمية.

لقد اتسمت التنمية العربية خلال النصف الثاني من القـرن العشرـين بقصـور واضح وخطير بالرغم من الإنجازات التي تحققت في بعض الأقطار العربية.

ومن دلائل أوجه هذا القصور العوامل التالية:

1- النسبة العالية للأمية بين الكبار.

2- تدني نسبة الالتحاق في مرحلتي الدراسة الابتدائية والثانوية.

3- تدني نسبة الخريجين من الكليات الهندسية والعلمية.

4- تدني الإنفاق على الرعاية الصحية.

5- جمود أداء الصناعة التحويلية كنسبة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي حيث بلغت القيمة المضافة في الصناعة التحويلية العربية 10% في عام 1991.

6- الخلل الخطير في الميزان الغذائي بين الإنتاج والاستهلاك مـما يشـكل انكشـافاً خطيراً للأمن الغذائي العربي.

7- تدني الاهتمام بالتنمية البشرية العربية من حيث النوع حتـى بالمقارنـة مـع بعض الدول النامية النشيطة.

8- ارتفـاع المديونيـة الخارجيـة العربيـة حيـث بلغـت عـام 1992 مـا مقـداره 218.6مليار دولار.

ما هي إجراءات العرب مجتمعين أو منفـردين للتعامـل مـع التقانـة أو الحصـول عليها؟

لقد بقي الوطن العربي خارج إطار تبني سياسات وخطط جماعية لاسـتيراد أو حيازة التقانة وأن ما تحقق في بعض الأقطار العربية لا يشكل

منظومة ضمن القطر العربي الواحد ناهيك عن أن يكون نسيجاً واحداً على الساحة العربية بأكملها. وبهذا الصدد يمكن إبداء الملاحظات الآتية:

1- بالرغم من وجود العديد من المؤشرات الكمية المشجعة إلا أن الانتقال إلى وضع نوعي جديد في الوطن العربي يسمح أولاً بالتحكم في اختيار وتقويم التقانة المستوردة. أما تطوير وابتكار المناسب من التقانات فلم يتحقق إلا بشكل هامشي.

2- بالرغم من اهتمام الأقطار العربية في وقت مبكر بالبحث العلمي وإنشاء الوحدات الإنتاجية ونشر التعليم وإعداد المهنيين والتقنيين، فإن ما تم بمضمون لا يزيد عن استيراد الجانب المادي من التقانة بهيئة مصانع ومعدات ومستلزمات ولم يتم الاهتمام الكافي بالجانب المعرفي والدراية.

3- أن المؤسسات المساندة للإنتاج في الجانب التقانية لم تر النور، ما عدا المكاتب الاستشارية الهندسية والعلمية محدودة الاختصاص والفاعلية وبعض مراكز البحث والتطوير ضعيفة الفاعلية.

4- ضعف الدعم للقدرات الوطنية مما أضعف موقفها التفاوضي والتعاقدي فنتج عن زيادة تحكم مصدر التقانة وفرض شروط مجحفة على مشتريها.

5- ضعف التنسيق بين الأقطار العربية في حيازة التقانة مما جعلها تدفع أسعاراً مبالغاً فيها وقد يدفع كل قطر على انفراد ثمناً مختلفاً عن قطر عربي آخر.

6- ما زال حتى نهاية السبعينات، الأسلوب المعتمد، بشكل عام، حكومياً وشعبياً هو أسلوب المشروع الجاهز - المفتاح باليد - لقلة احتمالات ان يتعرض المسؤول للمساءلة وذلك باعتماده كلياً على الخبرة الأجنبية مما لا يحفز على حيازة التقانة وطنياً بل يقتلها لأن

الخطوة الأولى في توطين التقانة في أي بلد هو تقانة الملاكات الوطنية بنفسها.

7- ضعف الحوافز المادية والمعنوية لنمو المعارف التقنية ووضعها موضع التطبيق في أعمال إنتاجية تتلاءم وأهداف التنمية وعدم حل المشاكل التي تؤدي إلى هجرة العقول وعدم حماية المؤسسات العلمية والتقانية الوطنية في وجه المنافسة الدولية.

8- اعتماد الكم وليس النوع في إعداد الملاكات العلمية والتقانية وعدم ارتباط الإعداد بالاحتياجات الفعلية للبلد.

إن البناء التقاني في شتى قطاعاته الصناعية والزراعية والخدمية وتحديث الهياكل الأساسية لا يمكن أن يتم بأيد عاملة أجنبية أو عمالة عربية غير مستقرة إذ أريد لهذا البناء أن يكون جزءاً من معادلة التبعية الاقتصادية والتقانية التي تتحول في نهايتها إلى تبعية سياسية بصورتها الحديثة والتي تتجلى في عدم القدرة على اتخاذ القرار السياسي في حينه أو انعدام الخيارات السياسية الممكنة لأسباب اقتصادية أو تقانية محضة قد تؤدي إلى وقف الماكنة الإنتاجية للبلد بأكمله.

إن التخلف هو انعدام الدينامية الذاتية متمثلة بالقدرة الإنتاجية للمجتمع واستمرار العلاقات والقيم المرتبطة بحقبات إنتاجية قد تم تجاوزها من قبل الآخرين والتبعية بسبب العجز عن الإبداع والعجز عن الإنتاج المنافس والعجز عن تفجير الإمكانات الذاتية المستندة إلى التعلم والتدريب واكتساب الخبرة والدراية.

والتخلف من حيث المفهوم هو تماماً مثل التقدم ولكن بالاتجاه المضاد، ظاهرة تاريخية متحركة ذات طبيعة جدلية من إلغاء وبناء وتركيب وتحليل. وفي معظم الأقطار العربية يعالج التخلف من زاويتين منفصلتين هما:

1- شراء المعدات وتجميعها دون أن تكون منظومة متماسكة.

2- التوسع في التعليم المدرسي والتقني والجامعي على أسس تقليدية.

أما التقدم فهو مفهوم أيديولوجي أخلاقي بالأساس، إذ أنه من الناحية التقانية البحتة ليس هناك ما يمنع من استخدام نظام معين طالما أن هذا النظام يساعد في الحصول على مخرجات إنتاجية أكبر، وهذا بحد ذاته إطار براجماتيكي واضح السمات ومن غير الممكن القبول به دون قيود أخلاقية أيديولوجية، إذ أن التنمية تحمل طابع التقدم، إذ تحقق بها أولهما شرطان أساسيان:

1- أن توزع مكاسب التنمية على القطاع الأكبر من المجتمع.

2- أن تعمل مكاسب التنمية على الارتقاء بمستوى بذل المجهود البشري لأكبر قطاع من المجتمع.

إن الخروج من المأزق الذي يمثله الوضع القائم بالنسبة لموضوع التقانة والتدريب والإعداد والتنمية الذي تخلف شدته من قطر عربي لآخر يتطلب رؤية جديدة ومعالجة مركبة تحمل كافة العناصر التي تحملها الظاهرة التقانية ذاتها، أي أن المعالجة يجب أن تتضمن الأبعاد السياسية والاجتماعية والتعليمية والحضارية حيث:

1- لا خروج من التخلف بدون تنمية اجتماعية حقيقية تعتمد على المجهود الذاتي للمجتمع.

2- ولا تنمية شاملة بدون قدرات تقانية متجذرة في المجتمع ومفجرة لإمكاناته الإبداعية.

3- ولا قدرات تقانية اجتماعية بدون وعي سياسي مستقبلي متمثل بخطط وبرامج واضحة.

4- ولا تقانة بدون ممارسات اجتماعية عميقة الجذور.

5- ولا ممارسات عميقة الجذور بدون ضغط الضرورة.

6- ولا ضغط للضرورة بدون الاستغناء عن التقانة الجاهزة المتمثلة بالمعدات والقوة العاملة المستوردة والمؤقتة.

7- ولا تقانة بدون انخراط اجتماعي في العمل الإنتاجي على مختلف المستويات.

8- ولا انخراط في العمل بدون أنظمة تعليم وتدريب وإدارة وتشريع وقيم تشجع القوى الاجتماعية المتميزة على ذلك.

9- ولا جدوى من التدريب بدون أن يكون متكاملاً في العلم والتعليم والإنتاج والحياة الحضارية بكاملها.

إن ارتقاء سلم الحضارة يتطلب زيادة الإتقان وسرعة الإنجاز مقروناً بالإبداع والابتكار من هنا فإن الإعداد في المعهد والجامعة لا يكون نهاية المطاف وإنما بداية مرحلة الحياة العملية التي قد تستمر معدل (40 عاماً). فقد ثبت من تجارب الشعوب أن فاقد الشئ لا يعطيه، لذلك فإن تفاعل العالم العربي مع علم الآخرين لا يحصل بفاعلية ما لم تتكون نخبة مقتدرة تستطيع استيعاب وهضم علوم الآخرين ومواكبة ما يكتشفونه من نظريات علمية وتقانات. ومن المتطلبات الواجب توفرها من هذه النخبة مقدرتها على البحث العلمي والتحليل وتمييز الغث من السمين. فقد تميزت التطورات العلمية والتقانية المعاصرة بعدة خصائص من أبرزها الآتي:

1- سرعة التطور وتسارع وتيرة الاكتشاف والاختراع والتطبيق وتقلص الفارق الزمني بين الاختراع وتطبيقاته.

2- تراكم هائل في المعارف العلمية والتقانية وفي التجديد "الصناعي".

3- تزايد الارتباط بين التقدم العلمي والتقاني والتطور الاقتصادي والاجتماعي.

4- تعاظم قدرة الدول المتفوقة علمياً وتقانياً على التحكم في توجيه مسارات التطور بما يخدم مصالحها وازدياد سعة الفجوة الفاصلة بين دول الشمال الصناعية المتقدمة ودول الجنوب النامية.

5- تزايد دور الشركات متعددة الجنسية في توجيه الاقتصاد الدولي وفي توجيه التطور العلمي والتقاني.

6- شيوع الحضارة المادية على حساب الجوانب المعنوية والإنسانية.

7- تركيز دول الشمال على مجالات واعدة مثل الإلكترونيات الدقيقة، والتقانة الحيوية والفضاء والطاقات الجديدة والمتجددة والروبوتات والحاسبات وغيرها.

8- تحكم المتغيرات الدولية في عملية انتقال الأمم والدول من عصر التصنيع إلى عصر المعلوماتية.

9- أضحى البحث العلمي والتطور التقاني عاملين هامين لاستقرار المجتمعات الحديثة وصيانة سلامتها وأمنها.

تتأثر مقدرة المجتمع على استيعاب وتطويع وتطوير المعرفة العلمية والتقانة واستخدامها الكفوء في الأنشطة الإنتاجية بثلاث عناصر رئيسية، وكالآتي:

1- المعرفة المتاحة والتي بالإمكان استغلالها، ويشمل إطار المعرفة هنا بمفهومه الواسع معرفة ماذا، وكيف، ولماذا؟

2- المعلومات المتاحة والقادرة على استيعاب هذه المعرفة واستخدامها في الأنشطة الإنتاجية.

3- هيكل وكفاءة المؤسسات المعنية بالتقدم العلمي والتقاني والتطبيق العملي لمنجزاته.

إن درجة الترابط والتكامل بـين هـذه العنـاصر تحـدد إلى مـدى بعيـد مسـيرة التقدم التقاني، الأمر الذي يجعل أي خلل في العلاقة المتوازنة بينهـا سـبباً في الاعـتماد على الخارج في توفير الوسائل الأساسية للنمو الاقتصادي الذي هو التبعية التقانية.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تطوراً كبيراً قد حصل في الربع الأخير من هذا القرن في دور العلوم والتقانة وخاصة في دول الشمال، إذ انتقل الاهتمام من الآلات الكبيرة والمعادن الثقيلة إلى قضايا التحكم الآلي وأجهزة القياس وإنتاج الشرائح الدقيقة والقطع الصغيرة والمنتجات الخفيفة الكفوءة والاستخدام الواسع للمواد البلاستيكية والمواد الجديدة والاهتمام بالبيئة والحد من التلوث وكفاءة استخدام الطاقة ودخول هذه المجموعة من الدول في عصر جديد هو عصر المعلوماتية الذي يتميز بتقدم كبير في الاتصالات والحاسبات وتقانة تداول المعلومات من حيث خزنها وإشاعة استخدامها. وفي ظل ثورة المعلوماتية تم تقليص اعتماد الاقتصاد على المواد الأولية وهناك أمثلة عديدة على ذلك منها برمجيات الحاسوب والكيان الصلب للحاسوب والمستحضرات الصيدلانية ومنتوجات الترفية، والتقانات الثقافية والفضائية وغيرها. وفي مقدمة ما تحقق للنظام الدولي الجديد، إحلال ثقافة التسلية محل ثقافة العقل، أي تسطح مدارك الإنسان والنزول بها نحو البلادة والركود العقلي. تلعب الثقافة عادة دور التنفس للإنسان خاصة في الأزمات، وما يلاحظ في عالم اليوم هو الفراغ الثقافي وانهيار دور الثقافة الوطنية لحساب ثقافة التسلية، وهي كما معروف ثقافة استهلاكية وليست مبدعة ارتبطت في الماضي القريب بالامبرياليات وتلتحم اليوم بالنظام الدولي الجديد. فليس مصادفة إذا لاحظنا اهتزاز الثقافات الوطنية في مختلف مناطق العالم بفعل ضغوط ثقافة النموذج الوافدة من الخارج ومحاصرة الثقافات من الداخل.

وقد أعطى هذا الصراع نتائجه الأولى المتمثلة في ثقافة تغييب الوعي للساحة الفكرية.

هل ثمة مبرر اليوم للحديث عن خيارات العرب في البحث العلمي والتطوير التقاني والتقانة؟

لابد من الإشارة هنا إلى أن أمتنا العربية تتمتع بإمكانات مادية وعقلية كبيرة، فكما نهضت في الماضي نهوضاً بطولياً متميزاً، فإنها قادرة فيما لو توفرت لها القيادات السياسية والعلمية المقتدرة والمؤمنة ذات الإرادة الصلبة واستجمعت قواها ووضعت أولوياتها بشكل علمي فإن المطلع على نهوض أمم وهبوط أخرى. لذا فالمطلوب منا أن لا نقف عند الحدود التي نصل إليها في الخبرة والعلم. فعند ما نصل إلى القمة في هذين الميدانين علينا أن نبحث عن قمة أخرى أعلى منها. فالعلم والتقانة في تطوره مستمر في عصرنا الراهن وفي المستقبل أيضاً ويحتاج الإنسان معها باستمرار إلى تعزيز خبرته بالجديد ومحاولة استمرار التراكم في ميدان الخبرة لا لكي نواكب فحسب وإنما لكي نرتقي في سلم الاتقان وسرعة الإنجاز والإبداع، وصولاً إلى نهوض الأمة العربية لتحقق مرة أخرى معجزة كما عودتنا في الماضي وأن غداً لناظره قريب.

16

الفصل السادس عشر

تجربة اليابان في التقدم العلمي

الفصل السادس عشر

تجربة اليابان في التقدم العلمي

برزت اليابان في الآونة الأخيرة كواحدة من أقوى الدول المتطورة الرأسمالية وأسرعها تطوراً، فهذه الدولة والتي لا تحتل مساحتها سوى 0.25% من مساحة العالم، أصبحت تحتل في نهاية السبعينات قرابة 13-14% من مجمل الناتج المحلي الإجمالي لدول العالم كافة و 10% من مجمل الصادرات الدولية.

والمثير أن هذا الموقع المرموق، الذي احتلته اليابان بين الدول الرأسمالية المتطورة، لم يأتي حصيلة لحقبة طويلة من الزمن، كما حصل ذلك لغيرها من الدول المتطورة الأخرى، بل جاء هذا التطور المذهل والسريع خلال فترة زمنية وجيزة نسبياً، فبالأمس القريب، وعلى وجه التحديد في نهاية القرن التاسع عشر كانت اليابان واحدة من الدول الأسيوية الفقيرة والمتخلفة ثم راحت خطى النمو والتطور تسير فيها سيراً حثيثاً في القرن العشرين، وعلى الرغم من أن هذه الدولة خاضت خلال القرن العشرين حربين عالميتين خلفتا فيها الويلات والدمار، لكنها عادت واستجمعت طاقاتها وإمكانياتها على ركام ذلك الدمار والتدهور، وأقامت طوراً شامخاً من الحضارة والتطور تخطى الحدود التي فرضتا إمكانياتها المادية والطبيعية الشحيحة، وبذلك تجاوزت اليابان أغلب الدول المتطورة الرأسمالية، وأصبحت تحتل الموقع الثاني بعد الولايات المتحدة الأمريكية بين الدول المتطورة الرأسمالية كافة.

لقد أنجزت اليابان بحق قفزة سريعة في نموها الاقتصادي في الآونة الأخيرة، وحققت نهضة شاملة تناولت مختلف مرافق حياتها الاجتماعية والاقتصادية وأصبحت تحتل موقعاً مرموقاً في الاقتصاد الدولي، ولهذا فليس

من الغريب أن يتحدث البعض عن "النمو الياباني" أو "المعجـزة اليابانيـة" ذلـك أن هذا التطور السريع والشامل لابد أن يكون برهان تجربـة رائـدة في ميـدان التطـور والنمو تميزت بها اليابان عن غيرها من الدول المتطورة.

إن أبرز الأمثلة على جدية الحياة المعاصرة وأثرهـا في أمـة مـن الأمـم، نجـده في اليابان، هذا البلد الذي فاق بجديته في الحياة كثيراً من الأمـم التـي سـبقته في مضـمار الحضارة المادية. ومن معالم الجد في هذه الأمة، أن كل فرد فيها منصرف إلى عملـه أو إلى علمه، ومنكبّ عليه، ومنهمك في التزود من العلم، أو في اكتشاف مـا سـاعده عـلى إدخال الجودة في عمله. ولا يتيسر له ذلك أن لم يكن متزوداً بالعلم في مجال تخصصـه ومؤهلاً تأهيلاً مهنياً ممتازاً.

واليابان كانت في القديم تشكل جزءاً مـن الحضـارة الصـينية وكانـت في عزلـة - شبه تامة - عن العالم الخارجي، فرضتها عـلى نفسـها، متـأثرة مـن كونهـا جـزراً بعيـدة نسبياً عن القارة الآسيوية؛ والجزر الأربـع الكـبرى في اليابـان، تشـكل قوسـاً مفتوحـاً في مواجهة الساحل الشرقي لآسيا، ويفصل بينها وبين هذا الساحل بحر اليابـان، والاتصـال باليابسة الشرقية لم يكن يسيراً لضعف وسائل النقـل البحريـة. وهـذه العزلـة جعلـت منها أمة حذرة من التعامل مع الغريب، لأنهـا لم تكـن معتـادة عـلى ذلـك مـن قبـل. وعندما أجبرت على فتح موانئها للتجارة الخارجية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، تحت ضغط الولايات المتحدة وإنجلترا وروسيا، ابتدأت تتصل بالعالم الخارجي، وكانـت بداية لما بعدها في تاريخها الحديث.

وقد تفتحت أعين الشعب اليابـاني عـلى كـل جديـد، وشـغفت الأمـة اليابانيـة بتتبع كل مبتكر، حرصاً منها على أن تكتشف أسراره، وتزيد عليه تعديلاً في تحسـين، ولهذا وجدنا المصانع الغربية لا تطرح نوعاً من الإنتاج العلمي الجديد، إلاّ وأسرعـت اليابان إلى دراسته والتعرف على سر الصنعة فيه، ويتفوق عليه بمزايا عديدة. وهذا لا يعني أن الشعب الياباني مقلد وغير مبتكر، بل أنه متفتح البصيرة، وسبّاق في مضمار الكشف العلمي، وهو

المشهور عن أنه صاحب الذوق الرفيع في إخراج الإنتاج على خير صورة وأقربها إلى النفس الإنسانية.

وهذا التفوق العلمي لم يأتِ اعتباطاً، وإنما جاء نتيجة لهذه الجدية التي أنتهجها الشعب الياباني، واتخذها شعاراً له، ونتيجة لهذا التصميم الذي أخذ به في أن يدخل معترك الحياة من أبوابها الموصلة إلى طريق القوة والعزة.

وقد كان رائد هذا الطريق الإمبراطور الياباني ميجي Mieji (1852-1912م)، الذي أطل من زاوية (المصلحة) على التقدم العلمي والصناعي، الذي ظهر في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، في ديار الغرب، أي في عام 1868م، تاريخ بداية إصلاحات الإمبراطور المذكور، حينما فتحت اليابان أبوابها للأفكار الغربية ابتداءً من عام 1868م، بعد أن ارتقى العرش الإمبراطوري الشاب المتحمس "ميجي"، الذي قال في خطاب العرش: "إن المعرفة سوف يبحث عنها، ويقتضي أثرها في كل ركن من أركان العالم". فأوفد عدداً من البعثات المتلاحقة لارتشاف الموارد العلمية من منابعها، ولاكتشاف أسرار الصناعة الحديثة، والتعرف على مزاياها، والعودة إلى بلاده بما ينفع منها، وقصرهم على هذه الدراسة، ولم يقبل منهم العدول عنها إلى غيرها بشكل من الأشكال، وشدّد في الرقابة على هذه البعثات وأحكمها، ولم يقبل من أفرادها إلا الجدية في تعلمهم والانصراف الكلي إلى تحقيق الغاية التي ابتعثهم من أجلها. وقد عادت هذه الوفود العلمية بما تزودت منه، وابتدأت عملية تمثيل هذا الزاد في جسم الشعب الياباني، وفي عقلة تؤتي أكلها وتعطي ثمارها.

وفي نفس الوقت "استقدمت" الحكومة آلافاً من الخبراء الأجانب إلى اليابان للعمل فيها بأجور مغرية، وكانت مهمتهم الأساسية هي مساعدة اليابانيين في إنشاء أعداد كبير ومتنوعة من المعاهد والمؤسسات، بجانب بناء المصانع وشبكات الطرق والسكك الحديدية.. وحتى أمور الزراعة.

إن فترة حكم هذا الإمبراطور التي امتدت مدة خمسة وأربعين عاماً ما بين (1868-1912م)، ما يسمى "عصر الميجي" أو "عصر النور"، كانت

تتميز بطابع الاقتباس العلمي، وتمثيل عناصر الحضارة الغربية التي وجدوا مصلحة في تبنيها.

وقد أصرت اليابان على أن تتعلم وتقتبس من كل دولة ما هي متفوقة فيه، فأرسلت بعثات إلى إنجلترا لتعلم صناعة السفن الحربية والتجارة البحرية، وإلى ألمانيا لتعلم التدريب العسكري والطب. وإلى فرنسا لتعلم القانون، وإلى الولايات المتحدة لتعلم أساليب التجارة... فالعالم المتقدم آنئذ كان لها مدرسة مفتوحة، يتعلم فيها أفراد بعثاتها - من كل بلد - ما هو أقوى تخصصاً. ولم ينطوي النمو الاقتصادي على القطاع الصناعي خلال هذه المرحلة بل شمل القطاع الزراعي أيضاً وجاء تطور القطاع الزراعي مكملاً للنمو الصناعي لأنه أتاح الإمكانية لزيادة الضرائب على المزارعين وسد حاجة السكان من المنتجات الزراعية وتقليص العجز في الميزان التجاري. وإلى جانب ذلك كانت الدولة تنفق الأموال في سبيل تطوير قوتها العسكرية وتكوين قوة دفاعية متميزة.

ودارت الأيام... وما أسرع دورانها.. فإذا اليابان تضع أقدامها على الطريق الصحيح، طريق العلم، مع الاحتفاظ بشخصيتها الأصلية وحضارتها وقيمها وتراثها، فتشكل بذلك حضارة ذات طابع خاص، وإذا بها تدخل حلبة السابق العالمي وتتخطى الدول واحدة بعد الأخرى في كل مناحي الحياة، حتى لتكاد أن تستقر في المقدمة، على الرغم من نقص مواردها الطبيعية، وعدم ثرائها، ولكنها عوضت كل ذلك بالاستثمار في البشر من بينها، هذا هو أفضل استثمار للذين يعون الدور الخطير للتربية، وظهرت اليابان مع نهاية القرن الماضي... عملاقاً يعمل له الجميع ألف حساب، والذين لم يقدروا الحسابات تماماً أصابتهم اليابان في مقتل فتعلموا. فخلال عامي 1894-1895م خاضت اليابان حرباً مع الصين ثم خاضت حرباً أخرى خلال عامي 1904-1905م مع روسيا، وخرجت منهما منتصرة، فقد تفوق الياباني الحربي على الصين وعلى روسيا القيصرية.

وخلال الحربين العالميتين اللتين عمتا العالم كله، أثبتت اليابان أنها خصم عنيد خطير، حتى لأغنى وأعتى وأقوى الأمم. الولايات المتحدة.. التي لم تجد أمامها بد من ضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية كسابقة لم تحدث من قبل، وقال سياسيوها إنهم لم يفعلوا ذلك إلا لكي يرغموا اليابان على التسليم، وكي يقصروا أمد الحرب، ويوقفوا نزيف الدم الرهيب في المحيط الهادي.

ومن بين حطام الحرب وركامه، أطل العملاق الياباني برأسه مرة أخرى، وخرج يلملم شعث أبنائه، ويضعهم مرة ثانية على الطريق.. في المدارس.. كما في الجامعات.. في المصانع.. كما في المزارع.. وفي البحر. كما في المناجم، ولم يمضي إلا نحو ربع قرن وبدأت صرخات رجال الأعمال وشركاتهم ومؤسساتهم في الغرب تسمح في كل مكان بسبب المنافسة التجارية الحادة الآتية من .. اليابان، خاصة وإن إنتاجها متميز الجودة عالمياً، كما أنه أرخص سعراً.

واليابان التي خرجت من الحرب العالمية الثانية بذل المنكسر لم يفارقها عامل الجد مطلقاً، بل تمكنت عن طريقه من جعل الدول المنتصرة (وروسيا معها) في حاجة إلى كثير من إنتاج اليابان المتفوق في عالم الصناعة الدقيقة والثقيلة. وقد ضرب إمبراطور اليابان "ميجي"، خير مثل على توخي المصلحة لأفراد أمته، فأورثهم هذه الجدية في الأمور جميعها، فهم يسيرون في الخط الذي اختطه لهم، ويقطفون من الثمار التي غرسها بيده، وأينعت بحسن تعهدهم لها. إن (منظار المصلحة) هو سر تقدم الأمم، التي تدرس بإخلاص، ما هي في حاجة إليه، وتعمل على تحقيقه برغبة وعزيمة صادقة، فتوخيه في ذلك (المصلحة) لا غير، مصلحة الأمة جمعاء، في أن تكون عزيزة الجانب بعيدة المنال مرغوبة الصلة.

وقد أشار وزير خارجية اليابان في حديثه عن أبرز عوامل ازدهار الاقتصاد الياباني، "عندما قررت اليابان منذ مئة عام أن تنفتح على العالم، وان تتبع سبل المدنية الحديثة، فأن روح الاحترام والثقة بالنفس لدى أجدادنا، جعلت في

إمكان ذلك الجيل أن يقبل التوجيهات من الأمم الغربية المتقدمـة دون أسـاس بمركب النقص، وقد كانت هذه أحد العوامـل الكـبرى التـي أسـهمت في خطـا اليابـان السريعة نحو المدنية الحديثة. وعلاوة على ذلك، فقد وضع أجدادنا اهتمامهم الرئيسي في مجال التربية والتعليم، فتركوا لنـا رصـيداً وافـراً، ويشـهد عـلى ذلـك أن 99.9% مـن الشعب الياباني اليوم قد استكمل فترة التعليم الإلزامي.

ولما كان العمال اليابانيون البالغ عددهم خمسين مليونـاً مـن العـمال المتعلمـين الأكفاء، يتمتعون بالنزعة إلى الادخار، فـإن معـدل الادخـار في اليابـان الـذي وصـل إلى 18.5% عام 1966م، يزيد مرتين أو ثلاث مرات على مـا هـو عليـه في أوروبـا وأمريكـا. وتعتبر هاتان الخاصيتان مـن أهـم العوامـل التـي أسـهمت في تحقيـق معجـزة النمـو الاقتصادي في اليابان.

النمو الاقتصادي لليابان عامة:

لقد كان مضي اليابان في نموها الاقتصادي حـدثاً فريـداً في ذاتـه إذ أنهـا حققـت معدلات للتنمية لم يسبق لها مثيل، وأن هذه المعدلات العالية قد حققت على حساب كثير من الخدمات الاجتماعية التي أجل تنفيـذها إلى مـا بعـد، رغبـة في تركيـز جميـع الجهود على النمو الاقتصادي.

العوامل التي ساعدت على هذا النمو:

لقد كثر البحث عن هذه العوامل وألفت المقالات والنشرات والكتـب لدراسـتها، منها ما هو رسمي نشرته وزارة الصناعة والتجارة الخارجية اليابانيـة ومنهـا مـا قـام بـه صحفيون أجانب اعتمدوا فيها على الإحصاءات الرسمية اليابانية ومنها ما قام به علماء اقتصاد غربيون.

وتتلخص هذه العوامل فيما يلي:

1- التعاون الوثيق بين الحكومة وبين القطاع الخاص.

يشرف موظفو الحكومة في اليابان على الصناعة إشرافاً يبلغ حداً بعيداً لـيس لـه مثيل في أي بلد رأسمالي، ولا يحصل هذا الإشراف بتدخل مباشر

للحكومة في الأعمال وإنما يجري بفضل جهاز معقد يشمل وزارات الحكومة وعدداً من المؤسسات مثل مصرف اليابان، من جهة، واتحادات الأعمال من جهة أخرى. فمن جهة الحكومة، هنالك خطط طويلة الأمد تعدها وكالة التخطيط الاقتصادي، القصد منها هو الدلالة على الاتجاه الذي يجدر بالاقتصاد ان يتبعه وهنالك تفاعل دائم بين مؤسسات الأعمال وبين موظفي الحكومة، وقد نظمت جميع قطاعات الأعمال اليابانية - عملياً - بشكل اتحادات تجارية تمثل الصناعة أمام المؤسسات الحكومية.

2- الإدارة الحكومية القديرة:

وتظهر هذه القدرة في حسن اختيار موظفي الدولة، فهي في اليابان أوسع إطلاعاً على المشاكل الصناعية والاقتصادية من زملائهم في الغرب. ويقول كاهات هيدبرغ، مؤلف كتاب "التحدي الياباني"، أن تسعين بالمائة من موظفي وزارة الصناعة والتجارة هم وطنيون كبار مخلصون. وتتمثل فيهم الروح التي نعهدها في موظفي وزارة الحربية والتي ظهرت في الثلاثينات من هذا القرن، وتجلت في شعارات أوضحها أحدهم إذ قال: إن اليابان لا تخطئ ولا يمكن أن تخطئ.. يجب على اليابان ألا تتراجع، وإلا تقبل بالتسويات والمساومات وأنصاف الحلول.. ينبغي ان نكرس كل طاقتنا لرفع شأن اليابان وخدمة مصالحها.

وتظهر قدرة الحكومة اليابانية كذلك فيما تتخذه من خطط وما تقدمه من مساعدات، فالخطط الخمسية التي تسير بهديها مرنة، وتقصد التوجيه لا الإلزام، فهي بمثابة الدليل المعد لإرشاد القطاع الخاص، محور التوسع والنمو الاقتصادي في اليابان. هذا إلى جانب النظم والإجراءات المختلفة التي تعمل بها حكومة اليابان، فهي تقدم العون أو تخفض من الضرائب والرسوم أو تعفي من دفعها بقصد تنشيط تصدير المصنوعات اليابانية. وهي تتخذ إجراءات الحماية لصالح المنتجات اليابانية، فهذه الحماية التي طالما انتقدها الاقتصاديون، وقد

سماها أحد الدبلوماسيين الأوربيين "مخدر الحماية" كانت إلى حين من أبرز ظواهر الاقتصاد الياباني.

ولابد من الإشارة أيضاً إلى التزام اليابان جانب السلم طيلة الفترة التي انقضت على الحرب العالمية الثانية. فحكومة طوكيو لا تنفق على شؤون الدفاع سوى 1% من مجمل إنتاج اليابان القومي.

3- خصائص ومزايا فريدة:

يحرص اليابانيون على تجديد وسائط الإنتاج في فترات قصيرة، وذلك قبل أن تصبح معدات الإنتاج قديمة. أما في أوروبا وأمريكا فكثيراً ما تمتدح المؤسسات الصناعية "العتيقة الجيدة"، وإذا اقترح المرء هدم المصانع التي قدم عهدها وعتقت أساليبها اعتبر مبذراً للأموال. أما اليابان فهي - بعكس ذلك - تفضل "التدمير الخلاق"، لذلك هدم اليابانيون بكل حماسة أكثر مصانع الحديد التي أنشؤوها في الخمسينات وتكلفوا الكثير من الأموال والتضحيات في إنشائها. وهكذا أصبحت اليابان تمتلك أحدث مصانع الفولاذ وأكثرها تمشياً مع التقنية الحديثة، وكذلك أن شأن مصانع السيارات والإلكترونيات وأحواض بناء السفن ومصانع الكيمياويات البترولية.

ثم إن اليابانيين جريئون في اقتراضهم من المصارف، وفي توظيف رؤوس أموالهم، وهذه الجرأة أو المغامرة تعطي نتائج طيبة في حالة اتساع سوق الاستهلاك، وهي تحد من نسبة التمويل الشخصي في اليابان. ويرى الكثيرون من علماء الاقتصاد أن صغر نسبة التمويل الشخصي هو أحد العوامل الأساسية التي تترتب عليها السرعة في التنمية الاقتصادية، وذلك أن تسديد القروض والاضطرار لدفع الديون في مواعيد استحقاقها، يحمل القائمين بالمغامرة على العدو بسرعة.

ويأتي فوق ذلك كله الدور الهام الذي يلعبه العمال والمستخدمون في اليابان، ففيهم تظهر قوة الاحتمال والعزيمة القوية والرغبة الصادقة في استنفاذ

جهدهم ووقتهم استنفاذاً كاملاً غير منقوص. قام أحد الخبراء الأمريكيين بدراسة إنتاج العمال اليابانيين، فكانت دهشته عظيمة جداً، فقد بينت تلك الدراسة أن قدرة العامل الياباني على العمل والصبر عليه تبلغ نسبة 130 في حين أن حصة العامل الأمريكي لا تزيد على نسبة 70، ومرد النسبتين إلى الدليل الدولي المقدر برقم 100. وما يصدق على العمال يصدق أيضاً على المديرين، فالتخطيط وحسن التنظيم صفات بارزة من صفات المديرين في اليابان. وقد تظهر هذه الصفات أكثر ما تظهر في حسن اختيار مواقع الصناعة اليابانية، وهي تفوق كثيراً مواقع الصناعات في كثير البلدان الأخرى، ونضرب مثلاً على ذلك بخامات الحديد، واليابان تستورد كل حاجاتها من هذه الخامات من الخارج، فهذه تنقل لدى وصول السفن المحملة بها إلى الموانئ اليابانية مباشرة من تلك السفن ومصانع الفولاذ.

4- التعليم والبحث العلمي:

لعل الصلة بين العلم وبين التنمية الاقتصادية في غير حاجة إلى إيضاح، وحسبنا ان نذكر في هذا الصدد أن الإقبال على التعليم العالي في اليابان فاق الإقبال عليه في ألمانيا الغربية، وقد بلغ عدد الطلاب الجامعيين في هذه الدولة الأوروبية العريقة في العلم والصناعة 75% فقط من عدد أمثالهم في اليابان، ويتجلى هذا الفرق الكبير في نسبة الطلاب الجامعيين من مجمل عدد السكان، وقد بلغت هذه النسبة 1.9 في ألمانيا، و 2.5 في اليابان في كل ألف نسمة من عدد السكان.

ولابد من الإشارة إلى أن معجزة النهضة العلمية والصناعية في اليابان إنما اعتمدت على النقل والاقتباس عن دول أخرى أجنبية، وقد ساد الاعتقاد بأن اليابانيين مقلدون ولا قدرة لهم على تصميم مصنوعات مبتكرة.

على أن كل بلد، يسير نحو التصنيع، لابد وأن يبدأ بالنقل والنسخ والتقليد، ويعني ذلك تبني التقنية والمهارات الناجحة. ولئن استحقت اليابان شهرتها كبلد مقلد في الثلاثينات من هذا القرن، فإنها غير ذلك اليوم، إذ أن

اليابان توظف من إنتاجها القومي في شؤون البحث العلمـي أكـثر مـما توظفـه الدول الأوروبية وتأتي في المرتبة الثانية بعـد الولايـات المتحـدة الأمريكيـة -. ويبـدو أن هذا التوظيف يدر في اليابان أكثر مما يدر في معظم البلدان الأخرى. أضف إلى ذلك أن عدد الموظفين في دوائر البحث والتنمية هو أعلى في اليابان من في البلـدان الأخـرى مـا عدا الولايات المتحدة. وجدير بالذكر أن توظيف الشركات الخاصـة في ميـدان الأبحـاث في اليابان عال نسبياً، ومن ذلك كان الاهتمام بالمنتجات غير العسكرية، وقد بدأت آثار ذلك تظهر فيما يتعلق بإجازات استثمار الاختراعات اليابانية الممنوحة إلى الشركات غير اليابانية، وفي المنتجات اليابانية الجديدة من أليـاف صـناعية وأجهـزة دقيقـة ونـاقلات ضخمة. لذلك يتقدم البحـث العلمـي في اليابـان تقـدماً حثيثـاً بحيـث يظهـر في هـذه الدولة الشرقية الناهضة نحو 195 ألف طلب تسجيل للاختراعات في السنة الواحدة.

وتجدر الإشارة بعد ذلك إلى أن المجتمع الصـناعي والتجـاري في اليابـان مجتمـع منفتح ويـذلي بالمعلومـات بسـهولة، وهـو نتيجـة لـذلك حسـن الإطـلاع، إن الخطـط الخمسية تذاع علناً في اليابان، وتحفظ في الغرب طيّ الكتمان، وقد يكـون لـذلك صـلة بالاهتمام الذي يبديه أهل اليابان بالمستقبل.

عوامل التفوق الياباني:

ولكن ما هي أسباب هذا التطـور السريـع للاقتصـاد اليابـاني وكيـف اسـتطاعت اليابان خلال فترة زمنية وجيزة أن تسبق الكثـير مـن الـدول المتطـورة رغـم إمكانياتهـا المادية والطبيعية الشـحيحة، حتـى تمكنـت مـن احـتلال الموقـع الثـاني بعـد الولايـات المتحدة الأمريكية من الاقتصاد العالمي الرأسمالي؟

الأسباب تكمن لاشـك، بالأسـاس، في العوامـل الذاتيـة لتطـور الاقتصـاد اليابـاني، والتجربة الفريدة في النمو والتطوير التي اعتمدتها اليابان لنفسها عبر مسـيرة تطورهـا والتي سوف نحاول الإشارة إلى أهم جوانبها فيما يلي:

1- إجراءات تدخل الدولة اليابانية:

مع أن اليابان قد سلكت منذ بداية تطورها الاقتصادي نهج الاقتصاد الحر، لكنها تميزت عن غيرها من الدول الرأسمالية في مستوى وأسلوب تدخل الدولة في تنظيم الحياة الاقتصادية، وذلك عن طريق إنشاء المصانع التي تستخدم التكنولوجيا الحديثة المستوردة من الغرب، والتي كانت تقوم بتحويلها إلى القطاع الخاص بعد نجاحها واستقرارها، كوسيلة لاستخدام إمكانياتها في دعم القطاع الصناعي، ويعود إنشاء الكثير من الصناعات الثقيلة كصناعات الفولاذ والسفن والأسلحة بالأساس إلى مبادرات الدولة لإنشاء هذه المصانع. ولم يقتصر دور الدولة على الاستثمار المباشر بل إنها كانت تقوم بتقديم طائفة متنوعة من إجراءات الدعم المالية وغير المالية للمؤسسات الخاصة لغرض توجيهها في المسار الذاتي تختاره العملية التنموية، فضلاً عن إجراءات الحماية التي كانت تقوم بها الحكومة اليابانية لحماية الصناعات الوطنية خاصة الثقيلة منها من منافسة السلع الأجنبية المستوردة.

وإذا كانت الحكومة اليابانية قد تخلت في الآونة الأخيرة عن الكثير من إجراءاتها المباشرة لصالح الاقتصاد الحر، فإنها لا تزال تحتفظ بسلطة التوجيه غير المباشر لنشاطات الاقتصاد الوطني التي تمارسها لغرض توجيه نشاطات المؤسسات والأفراد وفق المسار الذي تختاره للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، فهي تضع الأهداف والخطوط العريضة لاستراتيجية التنمية ثم تقوم بتوجيه المؤسسات والأفراد بأساليب مختلفة نحو تحقيق تلك الأهداف عن طريق وضع الضوابط والأنظمة المتكاملة التي تصل أحياناً إلى حد الصرامة في سبيل تحقيق تلك الأهداف.

2- القيم والتقاليد الاجتماعية اليابانية:

إذا كان التصنيع في الدول الصناعية الغربية اقترن دائماً بتغيرات جذرية في التقاليد والقيم الاجتماعية طالما أنه يتطلب الاستيعاب الشامل لمبادئ التكنولوجيا الصناعية والتحول في نمط التفكير، فإن الحال في اليابان كان

يختلف كلياً، ذلك أن المجتمع الياباني ظل محافظاً على عاداته وتقاليده، ويعـود ذلك بالأساس إلى أن الحكومات اليابانية المتعاقبة بذلت جهوداً مضـنية للحفـاظ عـلى التقاليد والقيم الاجتماعية الأصيلة، فالعائلة الشرقية التقليدية مثلاً، بتقاليدها وأعرافها المتوارثة بقيت هي الأساس للتمدن الياباني، والحكومات اليابانية اتخـذت مـن العائلـة اليابانية المتعاقبة بذلك جهوداً مضنية للحفاظ على التقاليد والقيم الاجتماعية الأصيلة، فالعائلة الشرقية التقليدية مثلاً، بتقاليدها وأعرافها المتوارثة بقيت هي الأساس للتمدن الياباني، والحكومات اليابانية اتخذت مـن العائلـة اليابانيـة وتقاليـدها المتوارثـة أساسـاً لتحقيق أهدافها حتـى أصـبحت المؤسسـة الاقتصـادية اليابانيـة تحـذو حـذو العائلـة اليابانية، بل تعمل وكأنها عائلة واحدة تحكمها ذات الأعراف والتقاليـد الشرـقية التـي تحكم العائلة اليابانية.

فكما يلتصق الأطفال بعائلتهم، وتسود العائلـة الواحـدة روح الألفـة والتضـامن واحترام الصغير للكبير، راحت المؤسسات اليابانية تعمل وفقاً لهذه التقاليد. ولهذا يظل العاملون اليابانيون مرتبطين بمؤسساتهم إلى أن يصلون إلى عجز التقاعـد، ومـن النـادر أن ينفصل أو يفصل أحد العاملين عن مؤسسة مثلما يندر أن يتبرأ أب عن ابنـه، وكـما يلعب العمر دوراً في تحديد موقع الفرد من عائلته فإن العمر والقدم هـو الـذي يـؤثر إلى حد بعيد في تحديد موقع الشخص من السلم الإداري للشركة، والترقية تعتمد عـلى التقدم، ولهذا فمن المعتاد أن تجد المسؤولين الكبار في الشركات اليابانية العريقة ممـن هم في اعمار الستينات أو السبعينات.

وتظهر العلاقة بين العاملين في الشركة الواحدة وكأنهم عائلة واحدة تسودهم الألفة والمحبة والتضامن، والعاملون في الشركة عادة يسكنون في بيوت الشركة، والشركة تنظم مجالات للهو للعاملين فيها، وأطفال العاملين ترعاهم الشركة وتقدم لهم الخدمات والانسجام والتضامن بين العاملين كأحد الأهداف المركزية الذي تبذل الشركة من أجله الكثير من الجهود،

وعندما تزداد أرباح الشركة فإنها تبادر إلى دفع العلاوات والإكراميات للعاملين فيها بينما تخفض الشركة تلك الإكراميات حالة تعرضها للكساد أو الخسارة.

ويبدو أن هذه القيم الاجتماعية كانت هي الأساس لفلسفة الإدارة وأسلوبها في المؤسسات اليابانية، ذلك أن المؤسسات اليابانية تعتمد على الرأي الجماعي الذي يشارك فيه العاملون بدلاً من الرأي الذي ينفرد فيه أصحاب الإدارة. وكما يتشاور أبناء العائلة في أمورهم يتشاور الإداريون مع العمال فتعقد الاجتماعات اليومية للنقاش حول الأمور المتعلقة بالشركة كافة قبل اتخاذ القرارات، ولا تعتمد المؤسسة على الضوابط القسرية والقرارات البيروقراطية الدقيقة قدر اعتمادها على المرونة وإتاحة الفرصة أمام العاملين للاجتهاد والإبداع، وأهداف المؤسسة تحدد بصراحة ووضوح لغرض تحفيز العاملين وجعلهم على بينة من أمورهم.

ولهذا فعلى النقيض مما يحصل في الغرب الرأسمالي، لا يسود الصراع بين العمال والنقابات في اليابان مثلما يحصل في الغرب، بل يسود الولاء الجماعي للمؤسسات والعمل الجماعي بين العاملين. ولعل هذه الظاهرة هي التي تفسر لنا أحد الأسباب الرئيسية لبروز ظاهرة حب العمل وإطاعة النظام لدى العاملين اليابانيين والتي كانت بالتأكيد أحد العوامل الأساسية لانخفاض التكاليف وارتفاع الإنتاجية والنمو السريع.

3- ارتفاع الإنتاجية:

يرجع التحسن في قوة المنافسة للسلع اليابانية في الاقتصاد الدولي بالأساس إلى ما يتميز به الإنتاج الياباني من انخفاض في مستوى التكاليف قياساً للكثير من الدول المتطورة الصناعية خاصة خلال عقد السبعينات ومطلع الثمانينات، وبعد السبق التكنولوجي الذي منحته اليابان اهتماماً مركزياً في سياساتها الاقتصادية المتعاقبة عاملاً أساسياً لانخفاض التكاليف في تلك الدولة، فاليابان منحت البحث والتطوير اهتماماً خاصاً

وكانت لها تجربة رائدة في تشجيع البحث والتطوير في جوانب الإنتاج كافة، ولم تكتف بخلق التكنولوجيا داخلياً من خلال اهتمامها بجوانب البحث والتعليم والتأهيل كافة، بل مارست نشاطاً مبدعاً في تطويع التكنولوجيا المستوردة وفقاً لبيئتها الاجتماعية ومتطلبات إنتاجها، فما أن يظهر اختراع في العالم إلا وبادرت إلى شراء براءة اختراعه ونفذته في الحال، وما كانت تبخل في شراء البحوث والوثائق العلمية وبراءات الاختراع وتراخيص الإنتاج وغيرها من جوانب التقدم التكنولوجي، بينما يتلكأ الكثير من الدول الصناعية أحياناً من تنفيذ ما يحصل لديه من ابتكارات واختراعات لما تنطوي عليه من تكاليف باهضة، ومثال "الفيديو تيب" الذي اخترعه الأوروبيون وأنتجه اليابانيون دليل واضح على ذلك.

ولم يكن السبق التكنولوجي هو العامل الوحيد لارتفاع الإنتاجية في اليابان، وإنما هنالك عوامل عديدة منها أن المصانع اليابانية تستنفذ طاقتها القصوى على أفضل وجه ولا توجد في اليابان عطل طويلة كتلك التي في الولايات المتحدة وأوروبا ولا مشاكل تعدد وجبات العمل، واليابان تعتمد على نظام متكامل يتوخى تشجيع المشاريع الصناعية على التطوير خاصة الصغيرة منها، سواء عن طريق منح القروض لتلك المشاريع بشروط ميسرة أو مدها بالخبرة والمشورات أو دعمها بإجراءات متعددة وسخية لتشجيعها على التصدير وكانت حصيلة هذه العوامل إن الإنتاجية في اليابان تنمو بوتيرة أسرع من الأجور، بل كان نموها ضعف نمو الأجور طيلة السنوات الأخيرة، في حين كانت الأجور في غالبية الدول الصناعية المتطورة تنمو بمعدلات أسرع من نمو الإنتاجية.

4- مراعاة التحولات في هيكل الاقتصاد الدولي

لم يكن الطلب في السوق المحلية هو المحدد الرئيس لهيكل الصناعة اليابانية على غرار ما يحصل في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، إنما كانت اليابان تنطلق وإلى حد بعيد من الطلب في الأسواق الدولية، وقد تكون

سعة السوق الداخلية اليابانية أحد العوامل التي ساعدت على ذلك، ولهذا كانت اليابان تمنح الأفضلية لتلك المشروعات التي يلاقي إنتاجها طلباً متزايداً في الأسواق الدولية.

وهي تراعي في إنتاجها متطلبات السوق الدولية كافة من حيث النوعية والسعر وشروط التبادل، بل ما يميز الاستراتيجية الاقتصادية اليابانية إنها كانت تتابع التحولات التي تحصل في هيكل الاقتصاد الدولي أولاً بأول، بمعنى آخر أن هذا القبول الذي تحظى به السلع اليابانية في الأسواق الدولية إنما هو حصيلة مرونة الاقتصاد الياباني وتكيفه السريع لما تتطلبه مواصفات السوق الدولية سواء في الأمد القصير أو الأمد الطويل.

5- رخص المواد الأولية

تحظى اليابان بسبب موقعها الجغرافي القريب من مصادر المواد الأولية خاصة في الشرق الأقصى والأدنى والأوسط، بميزة الحصول على نسبة عالية مما تحتاجه من مواد أولية بأسعار أرخص مما تحصل عليه بقية الدول الصناعية.

6- انخفاض الأجور:

والأجور في اليابان كانت منخفضة عن مستوياتها في بقية الدول الصناعية، فالعامل الياباني كان إلى وقت قريب قنوع الطبع لا يطالب بزيادات غير اعتيادية لأجوره كنظيره في الدول الرأسمالية المتطورة الأخرى، والنقابات اليابانية لم تكن تبالغ في المطالبة بزيادة الأجور. هذا العامل يعد تاريخياً أحد العوامل التي ساعدت اليابان على تخفيض تكاليف منتجاتها قياساً إلى بقية الدول الرأسمالية المتطورة.

7- التربية الاجتماعية

لا يمكن فصل هذا التفوق الذي حصلت عليه اليابان في المجال الدولي

عن طبيعة وسلوك الفرد الياباني وما يتميز به من حب للعمل وإطاعـة للنظـام وتقبل للتطوير، هذه الطبيعة التي جاءت نتيجة لما استقر عليـه المجتمـع اليابـاني عـبر التاريخ من قيم اجتماعية وتقاليد وأعراف كانت اليابان تحرص على ترسيخها والحفاظ عليهـا عـبر المؤسسـات المـؤثرة مـن تربيـة هـؤلاء الأفـراد ابتـداء مـن العائلـة ومـروراً بمؤسسات التربية والتعليم كافة.

اليابان بين التحديث والتغريب

من المؤكد ان "التحديث" مسألة خطرة، فالانتقال من مرحلة إلى مرحلة، أي من اقتصاد زراعي متخلف أو بداوة بسيطة إلى اقتصـاد صـناعي وسـوق متطـورة، يعـرض النسيج الاجتماعي لضغوط شديدة نتيجة نشـوء علاقـات اجتماعيـة جديـدة، تقتضيـ بالضرورة تغيير الأنماط السابقة في العلاقات داخل المجتمـع الواحـد. وفي رأي - أرنولـد توينبي - أن تطوير العلاقات الاجتماعية، وبكلمات أخرى، أن تطوير النظـام هـو شرط لتحقيق التقـدم الصـناعي والحضـاري بشـكله الحـديث الـذي نـراه في الغـرب (سـواء الرأسمالي أو الاشتراكي) وهو يرى أن المثال الغـربي، بمعنـى النظـام والدولـة، هـو إطـار التقدم ووسيلته. والواقـع، أن هـذا الـرأي لا يختلـف في جـوهره عـن رأي الإصـلاحيين العرب، من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي وبقية الرواد الأوائـل، الـذين ساهموا في صياغة المجتمع العربي منذ انطلاق الحركـات الوطنيـة العربيـة الأولى ضـد الخلافة العثمانية.

وإن "التحديث" لا يعني بالضرورة "التغريب"، وإن المحافظة على الـذات وروح الأمة هي مسألة لا تحتاج إلى جدل. ولعل التجربة اليابانية تتيح لنـا مشـاهدة عمليـة "التحديث" وتأثيرها على روح الأمة وأصالتها ومدى تـأثير هـذه التجربـة في "تغريـب" اليابان وإخراجها أو انتزاعها من ذاتها وتراثها وروحها. فاليابان دولـة شرقيـة عريقـة في تقاليدها، صاحبة شخصية غارقة في خصائصها القومية، وكانت أسـيرة نظـام اجتماعـي واقتصادي عتيق سقط أمام طلقات المدفع الغربي

الحديث، لكنها استطاعت وفي فترة زمنية قصيرة أن تلحق بالغرب الصناعي وأن تتفوق على معظم دوله في الصناعة والتكنولوجيا وإن تحقق معجزة "التحديث" بحق.

في حوار حول "التحديث والتغريب" في اليابان بين المؤرخ البريطاني جوفري باراكلو الأستاذ في جامعة اكسفورد، والكاتب الياباني تاكيوكوابارا الرئيس الأسبق لمعهد العلوم الثقافية في جامعة كيوتو، أضواء على هذه القضية، فقد أمضى المؤرخ البريطاني سنوات في اليابان لدراسة التجربة اليابانية وأسباب نجاحها. يقول المؤرخ باراكلو أنه ليس على المؤرخ أن يعني بالماضي فقط لأنه ماض، واجبه هو فهم الماضي لنتعلم منه في حياتنا ومستقبلنا. فدراسة التاريخ يجب أن تكون دراسة مقارنة حتى نتمكن من فهم عملية "التحديث".

وهذه المقارنة يجب أن تتم بين الأقطار المتشابهة وليس بين الأقطار المختلفة فليس هنالك فائدة من مقارنة قطر متخلف مع قطر متقدم. فلو نظرنا إلى قطر أوروبي، أو أوروبا كلها، دون النظر إلى آسيا في المرحلة الزمنية نفسها وماذا كان يجري فيها، فإن صورة أوروبا لا تبدو أمامنا على حقيقتها، ولكنها تكون صورة مزيفة. وعلى سبيل المثال، فإذا نظرنا إلى أوروبا في القرن العاشر الميلادي وقارناها بدول الشرق الأوسط أو باسطنبول حيث كانت عاصمة الخلافة أو بدولة تانغ في الصين، فإن النتيجة التي نصل إليها هي أن أوروبا متخلفة جداً، بل هي أكثر حضارات العالم تخلفاً، حينذاك.

وحين تقوم بدراسة مقارنة بين الحضارات والأمم فإنك تستطيع أن تبين لحظات بداية التغير من حال إلى حال. فالبندقية والمدفع والبارود واستخداماتها هو الذي أعطى للغرب قوته الجديدة، حتى استطاع ثلاثة آلاف جندي بريطاني إلحاق الهزيمة بقوات المغول في الهند التي كانت تزيد على ستين ألفاً. وهنا يشير المؤرخ باراكلو إلى أنه حتى أواسط القرن الماضي، لم تداعب الأوروبيين أية فكرة عن "التفوق" بالنسبة إلى شعوب آسيا وأن الفرنسيين حين احتلوا مصر ـ بقيادة نابليون في بداية القرن الثامن عشر لم يكن لديهم "مفهوم" التفوق

بالنسبة إلى الأتراك، بل أن هذا المفهوم لم يكن له وجود حتى سنة 1800 ولكن مشاعر "التفوق" الأوروبي على الآخرين كانت تنمو مع نمو التكنولوجيا الغربية. وفي ضوء ذلك، فإن تفوق الغرب في هذه الفترة التاريخية من 1800 إلى اليوم، ونتيجة تقدمه التكنولوجي هو تقدم قصير العمر على المدى التاريخي.

ويضيف باراكلو أن السيطرة الأوروبية على العالم لم تستمر أكثر من مئة سنة وأن ذلك يساعد على فهم أسباب انهيار الإمبراطوريات الأوروبية. ولكن كوابارا يقول أن انهيار السيطرة الغربية على العالم لم ينه النفوذ الثقافي الغربي، ففي اليابان، يعترف كوابارا بأن التأثير الغربي هو تأثير واسع وشامل، ولاسيما التأثير الثقافي الأمريكي، ويجب التفرقة بين التأثير المباشر الذي تمارسه السيطرة السياسية والتأثير غر المباشر الذي ينفذ بالثقافة، وبالنسبة لليابان يجب التفرقة بين "التحديث" و "التغريب" أي الانتساب إلى الغرب، وأن "التحديث" في كل الأحوال ترك بعض ظلال "التغريب".

ولكن باراكلو يعترض على ذلك، فهو لا يعتقد أن اليابان قد تعرضت لتغيرات ثقافية، فاللباس الغربي، المنتشر، هي مسألة سطحية فقط، كذلك بقية الاتجاهات من "الجينز" إلى "الديسكو". المحيط أو الجو في اليابان يختلف اختلافاً جذرياً عن الغرب على رغم التشابه السطحي.

ومن البديهي ان الثقافات المتخلفة لا تلبث أن تنسحب وتخضع للثقافات المتقدمة ولكن اليابان استطاعت الصمود أمام الثقافة الغربية بفضل أنظمة التعليم والاتصالات المتقدمة، هذا بشكل جزئي، ولكن الأساسي هو أن اليابان صاحبة ثقافة متقدمة أتاحت الإفادة من الثقافة الغربية دون التنازل الكلي أو الانسحاق. ويضرب باراكلو مثلاً بقوله؛ إن أي بلد يحتاج إلى نظام صرف وخدمات طبية حديثة، ولكن ذلك هو جزء من "التحديث" الضروري ولا يمت إلى "التغريب" بصلة. ولكن كوابارا لا يوافق على هذا الرأي موافقة تامة، فهو يلاحظ أن التكنولوجيا الحديثة قد غيرت عادات يابانية وبعض فنون يابانية وان اليابانيين أخذوا شحنة قوية من الثقافة الخارجية التي حلت مكان

العادات والتقاليد القديمة وفي رأي البريطـاني بـاراكلو أن هـذا غـير سـليم تماماً فالدراسات التاريخية تؤكد أن الثقافة الخاصة بـأي شـعب تتطـور باسـتمرار وأن هـذا التطور يعني بعض التغيير. وإن المطالبة بإنهاء "التغريب" أو "الغرب" ليس ممكنـاً لأن الغرب سيبقى دائماً جزءاً مـن العـالم، وأن التـأثر والتغـير لا يعنيـان الخضـوع او إلغـاء الشخصية الوطنية.

ويضـيف أن العـالم حاليـاً يشـهد نقطـة انعطـاف حاسـمة في تـاريخ الإنسـانية، فالمجتمعات المتقدمة تشك في نفسها، رغم أنهـا تقطـف ثمـار حضـارتها الحديثـة، بـل وتعـيش عليهـا. وهـذه المرحلـة، رغـم كـل التقـدم والتـأثيرات الغربيـة، تشـهد عـودة الثقافات المضطهدة، ليس في البلاد النامية فحسب، بل حتـى في الـبلاد المتقدمـة، مـثلاً أهالي ويلز في بريطانيا والفلنج في بليجـا والمنحـدرون مـن أصـول أسـبانية في الولايـات المتحدة.

ويعلل باراكلو هذه الظاهرة بأنها مظهـر للاحتجـاج ضـد الثقافـة الغربيـة التـي تهيمن عليها التأثيرات الأمريكية، التي هـي نفسـها مضـادة للثقافـة فالتـأثير الأمـريكي يعني الاستهلاك والمجتمع الاستهلاكي ولا يعنـي الصـلة بتقليـد أو ثقافـة أو فكـر.. وإن هذا الاحتجاج الذي يعبر عن نفسه بتأكيد الثقافة الوطنية لشعب مـن الشـعوب هـو ظاهرة صحيحة.

ويقول باراكلو؛ أن العالم الثالث في حاجة إلى التحديث، ولكن لا يريد التغريـب، وأكثر من ذلك فإن التغريب ليس ضرورياً، فمن الممكن أن تحقـق التحـديث في إطـار ثقافتك الخاصة دون تعارض مهـم معهـا. ويحـذر في نهايـة كلامـه، أن التطـوير الـذي عرفناه منذ بداية الخمسينات (نهاية الحرب العالمية الثانية) لا يمكن أن يستمر وعلينـا أن نجد نمطاً جديداً للتطور لا يعني، مزيداً من السلع الاسـتهلاكية. وإلا فـإن اسـتمرار هذا الوضع الاستهلاكي للحضارة يهدد بنهايتها.

والجدير بالملاحظة أن المحاورين البريطـاني واليابـاني ينطلقـان في حـوارهما مـن نقطة بدء واحدة وهي التسليم بالمفهوم الحديث للدولة وموقع المواطن فيها

والنظام الكفيل بمشاركة المواطن مشاركة كاملة في حياة بلده. فهـذه مسـألة لا علاقة لها بالتغريب ولا بالتحديث ولكنهـا مسـألة انـتماء للـوطن، ولـو أن اليابـان قـد تلقت واسـتوعبت هـذا المفهـوم مـن المثـال الغـربي، ولا خـلاف في أن مفهـوم الدولـة الحديثة الذي أخذت به اليابان كان هو المجال - الفرصة - الإطار الذي أتاح لها تحقيق كامل طاقاتها وإطلاق كل عبقريتها حتى استطاعت إنجاز المعجزة اليابانية الحديثة.

ولعل العبرة السريعة لهذا الحوار الموجز، الذي يحـاول أن يلقـي بعـض الضـوء على طبيعة العلاقات الجدلية بين التحـديث والتغريـب، هـو أن التحـديث ممكـن في إطـار ثقافـة البلـد وتراثـه ودون أن يـؤدي ذلـك إلى التغريـب. وإن الاعتقـاد بشـبهة التناقض بين التحديث وروح الأمة وتراثها وثقافتها هو خرافة لا تتجاوز عقل صاحبها.

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

1- صقر، عبد العزيـز الغريـب، دراسـات في اجتماعيـات التربيـة، الـدار العالميـة للنشرـ والتوزيـع، القاهرة، 2005م.

2- عفيفي، محمد الهادي، الأصول الثقافية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1985م.

3- فرحان، محمد جلوب، الفلسـفة التربويـة، منشـورات وزارة التعلـيم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة الموصل، 1987م.

4- الزوبعي، عبد الجليل، مناهج البحث في التربية، مطبعة جامعة بغداد، 1974م.

5- الجبوري، سلام علي، أهمية التربية في تجربة التنميـة، وزارة التعلـيم العـالي والبحـث العلمـي، جامعـة الموصل، 1987م.

6- عمار، حامد، التنمية البشرية في الوطن العربي، المفاهيم المؤشرات - الأوضاع، دار سينا للنشر والتوزيـع، القاهرة، 1992م.

7- عبد الجواد، نور الدين، الحاجة إلى تعريف عربي موحد لمفهوم تعليم الكبار، مجلة جامعة الملك سعود، العلوم التربوية، المجلد الرابع، 1992م.

8- الحميدي، عبد الرحمن بن سعد، بحوث ودراسات في مجال محو الأمية وتعليم الكبار، مطابع الفرزدق، الرياض، 1993م.

9- عبد الدايم، عبد الله، مراجعة اسـتراتيجية لتطـوير التربيـة العربيـة، المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلوم، 1995م.

10- جاسم، ميادة، التربية ودورها في التنمية الاجتماعية والاقتصادية، دار الفجر الساطع للنشرـ والتوزيـع، القاهرة، 1998م.

11- فرح، إلياس، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، دار الثقافة العربية، بغداد 1978م.

12- الحديثي، نزار عبد اللطيف، الأمة والدولـة في السياسـة العربيـة في القـرن الأول الهجـري، دار الثقافـة العربية، بغداد، 1979م.

13- محي الدين، سامر، الإشاعة أداة حرب عـلى الإسـلام والمسـلمين. دار زهـران للنشرـ والتوزيـع، عمان، 2006م.

14- فؤاد، عبد المنعم، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، مكتبة العبيكـان، الريـاض، 2001م.

15- عوض، أمين إبراهيم، حال الأمم قبل الإسلام، دار النسيم للنشر والتوزيع، دمشق، 1998م.

16- سمعان، وهيب، وسعد منير مرسي، المدخل في التربية المقارنة، دار ابن سينا للنشر والتوزيـع، القـاهرة، 1973م.

17- زقزوق، محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. الدوحة.

18- إسماعيل، محمد أيمن، النظرية العربية للتربية، دار النهضة التنموية للنشر والتوزيع، بغداد، 1989م.

19- أحمد، محمد عبد السلام، القياس النفسي والتربوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960م.

20- النجيحي، محمد لبيب، الأسـس الاجتماعيـة للتربيـة، مكتبـة الأنجلـو المصرـية، ط6، القـاهرة، 1976م.

21- ناصر، إبراهيم، مقدمة في التربية (مدخل إلى التربية) ط5، بدون دار نشر، عمان، 1983م.
22- أحمد، لطفي بركات، التربية ومشكلات المجتمع، دار النهضة العربية، القاهرة، 1978م.
23- أحمد، سمير نعيم، النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، 1982م.
24- النوري، عبد الغني، نحو فلسفة عربية للتربية، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1967م.
25-الكيلاني، إبراهيم زيد وآخرون، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط3، 1992م.
26- الافندي، محمد حامد، الإشراف التربوي، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، 1976م.
27- قاسم، مهدي، قواعد السير في الطريق العام، بغداد، مطبعة العمال المركزية، 1982م.
28- الجيار، سيد إبراهيم، التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، مكتبة غريب، القاهرة، 1987م.
29- أحمد، لطفي بركات، في مجالات التربية المعاصرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1979م.
30- عبد اللطيف، خليل إبراهيم، النشاط (أهميته، أسسه، ووسائل تطويره في العراق، مطبعة دار السلام، بغداد.
31- سرحان، منير مرسي، في اجتماعات التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1987م.
32- بريسم، طارق حبيب، العبقرية العربية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1991م.
33- ماج، جارلس، المجتمع في العقل، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م.
34- صليبا، جميل، مستقبل التربية في العالم العربي، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، 1967م.
35- أبو يوسف، محمد، دور الطالب، وأهميته في الإدارة المدرسية، دار الأسرة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1996م.
36- فرج، عبد المؤمن، الإدارة المدرسية المعاصرة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1، 1994م.
37- نعيم، أحمد عثمان، المدخل إلى التربية المقارنة، دار ابن سينا للنشر والتوزيع، دمشق، 1999م.
38- عبد الحميد، جابر، علم النفس التربوي، دار النهضة العربية، القاهرة، 1977م.
39- الكبيسي، وهيب مجيد، وصالح الداهري، المدخل في علم النفس التربوي، دار الكندي للنشر والتوزيع، اربد، 2000م.
40- السمرائي، هاشم وآخرون، المناهج - أسسها - تطويرها - نظرياتها، دار الأمل للنشر والتوزيع، اربد، ط2، 2001م.
41- العلي، أحمد فهد، الحرب تستهدف الإسلام، بدون دار نشر، القاهرة، 2000م.

طباعة تنسيق وإخراج

صفاء نمر البصار

MOB: 00962 79 6507997

safa_nimer@hotmail.com

الفلسفة التربوية
ودورها في التنمية



دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع
عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس 4655877 6 962+ موبايل 5525494 79 962+
ص.ب 712577 عمان 11171
E-mail: dar_konoz@yahoo.com

